الخلفاء الأمويون

من افتتاحياتهم ووصاياهم

الفرع السفياني

د. حامد غنيم أبو سعيد

ابتداء من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة. وفي عصر الخلفاء الراشدين. أخذت تظهر ملامح تقليد صار بعد ذلك نهجاً متبعاً لدى الكثيرين ممن تعاقبوا على منصب الخلافة الإسلامية. والتقليد الذي أعنيه يتمثل في تلك الخطبة الافتتاحية التي كان يستهل بها الخليفة عهده. وأيضاً تلك الوصية أو الوصايا كان يخلفها في نهاية مرحلته.

في الافتتاحية كان الخليفة يقدم في شكل خطوط عامة السياسة الأساسية التي سيسير عليها. والتي تشكل أساس الالتقاء بينه وبين الرعية. وكأنه يريد أن يقول: إن خروجه عن هذه السياسة يعتبر إيذاناً للرعية بأن تسحب البيعة أو الثقة التي سبق أن منحتها إياه. كما أن الوصية التي تصدر عن الخليفة في آخر عهده بالحياة تؤكد حرصه الشديد على سلامة مستقبل الدولة، ورغبته الأكيدة في استمرار مسيرتها على النهج الذي رسمه أو الذي يرجوه لها.

وتقدم خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع مجموعة من الوصايا الخالدة والتي أوصى بها نبي الإسلام جميع المسلمين في مختلف البلدان والأزمان، وعلى كافة المستويات، ومع اختلاف الأصول وتباين اللغات.

عقب وفاة الرسول ﷺ، وفي سقيفة بني ساعدة، تم الاتفاق على مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة، وفي اليوم التالي، وفي المسجد كانت البيعة العامة، وعلى المنبر افتتح أبو بكر الصديق عهده بخُطبة قال فيها بعد حمد الله والثناء عليه(1):

«أما بعد، أيها الناس، قد وليت أمركم ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن وسن النبي ﷺ السنن فعلمنا، اعلموا أن أكيس الكَيْس التقوى، وأن أحمق الحمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوى حتى آخذ منه الحق، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني(2)».

وفي مرضه الأخير أشرف أبو بكر رضي الله عنه على الناس وقال:

«أترضون بما استخلفت عليكم؟ فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم عمر، فاسمعوا له وأطيعوا، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي»(3).

ثم وجه الصديق حديثه الى عمر رضي الله عنهما فقال:

«يا عمر: إن لله حقاً بالليل لا يقبله في النهار، وحقاً في النهار لا يقبله بالليل، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة، ألم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً، ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً.

ألم تر يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً، ولا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه.

أو لم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون منهم، وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه يجاوز لهم ما كان من سيء فإذا ذكرتهم قلت: أين عملي من أعمالهم؟! فإن حفظت وصيتي

فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت، ولست بمعجزه».

وقد أسهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إرساء قواعد هذا التقليد، فقد سجل له التاريخ أنه افتتح عهده بخطبة قال فيها[٤]:

«أما بعد، فقد ابتليت بكم وابتليتم بي، وخلفت فيكم بعد صاحبيّ، فمن كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، ومهما غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة، فمن يحسن نزده حسناً، ومن يسئ نعاقبه، ويغفر الله لنا ولكم».

كما سجل له التاريخ أنه ترك وصية مكتوبة وفيها يقول[٥]:

«أوصى الخليفة من بعدي بتقوى الله، وأوصيه بالمهاجرين الأولين خيراً، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ... أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأن يشركوا في الأمر، وأوصيه بذمة الله وذمة محمد أن يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم، وأن يقاتل من ورائهم».

أما عثمان، رضي الله عنه، فإنه عقب بيعته خرج إلى الناس فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[٦]:

«أيها الناس إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أياماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله».

° ° °

أما الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد سجل له التاريخ أنه فتتح عهده بخطبة، واختتمه بوصية، يقول رضي الله عنه في افتتاحيته[٧]:

«ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات، ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه، والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة، ولتغربلن غربلة، ولتساطن سوط القدر، حتى

يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقن سابقون كانوا قصروا، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا».

وعقب الطعنات التي وجهها إليه عبد الرحمن بن ملجم قال رضي الله عنه موصياً ولديه الحسن والحسين[٨]:

«أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وأن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوى عنكما، وقولا بالحق واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً. أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله، ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما صلى الله عليه وآله يقول:

صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام.

الله الله في الأيتام، فلا تغبوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم.

والله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم، مازال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم.

والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم.

والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم.

والله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه ان ترك لم تناظروا.

والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله.

وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولي عليكم أشراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم.

ثم قال: «يا بني عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون: قتل أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين: ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنامت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثلوا بالرجل، فإني سمعت رسول الله، ﷺ، يقول:

إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور».

وهكذا ـ ودون الدخول في التفاصيل ـ يتبين لنا أن كلا من الخلفاء الراشدين كان حريصاً أن يوضح في

بداية عهده، ومن خلال خطبة افتتاحيته، منهجه في العمل والخطوط العريضة لأسلوبه في الحكم وطريقته في قيادة الدولة الإسلامية، كما كان كل منهم حريصاً أيضاً على أن يترك وصيته، إما في شكل حديث موجه إلى الرجل الذي سيلي الأمر من بعده، وإما في شكل حديث عام يخاطب من خلاله كافة المسلمين. وفي كلتا الحالتين فإنا ندرك أن الوصية كانت نوعاً من إبراء الذمة، وشكلاً من أشكال تحرير النفس من تبعة المسئولية، خاصة وأنه على أبواب المساءلة الكبرى بين يدي الله سبحانه وتعالى.

وافتتاحيات الراشدين ووصاياهم، على إيجازها، تقدم نمطاً متميزاً للتكامل بين العقيدة الإسلامية وقيادة الدولة في مجالاتها المختلفة السياسية والعسكرية والإدارية.

٢ ـ افتتاحية معاوية:

ينقسم خلفاء الدولة الأموية من حيث الأب الذي ينتمون اليه إلى فرعين: الأول هو الفرع السفياني، نسبة إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية، والثاني الفرع المرواني، نسبة إلى مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، ويلتقي الفرعان، كما هو واضح، في الجد الأعلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وقد قدم الفرع السفياني للدولة الأموية ثلاثة خلفاء، أولهم معاوية بن أبي سفيان، وثانيهم ابنه يزيد، أما الثالث والأخير فهو معاوية بن يزيد بن معاوية.

وأغنى الثلاثة وأكثرهم إثراء في مضمار الافتتاحيات والوصايا هو أولهم معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة وباني مجد الأسرة الأموية، وهو في هذا الميدان معلم وصاحب مدرسة سياسية لا يقتصر تأثيرها على الفرع السفياني أو الدولة الأموية فحسب، بل يمتد حتى يشكل معلماً سياسياً بارزاً في تاريخنا الإسلامي على امتداده الطويل.

خلف لنا معاوية افتتاحية ووصيتين تضمان داخلهما مجموعة من الوصايا الجزئية، ويعتبر هذا التراث بحق من عيون الفكر السياسي لرجل دولة من طراز فريد، في افتتاحيته يرسم منهجه في الحكم وأسلوبه في التعامل، وفي وصيته

يحدد لمن سيلي الأمر بعده أبعاد المواقف التي سيواجهها ويقدم الحلول المناسبة لها.

ونترك الافتتاحية تقدم معاوية، أو معاوية يقدم افتتاحيته، فقد ذكر أن معاوية أول عهده بالخلافة قدم المدينة النبوية فقصد المسجد[9]، وعلا المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال[10]:

«أما بعد، فإني والله وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم، ولكن خالستكم بسيفي هذا مخالسة.

ولقد أردت نفسي على عمل أبي بكر وعمر فلم أجدها تقوم بذلك، ووجدتها عن عمل عمر أشد نفوراً، وحاولتها على مثل سنيات عثمان، فأبت علي، وأين مثل هؤلاء، هيهات أن يدرك فضلهم، غير أني سلكت طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مواكلة حسنة ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا ببعضه، فإنها ليست بقائبة قوبها، وان السيل إن جاء يبرى، وإن قل أغنى، إياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، وأستغفر الله لي ولكم».

° ° °

ولكي نعرف الجو العام الذي ألقيت فيه هذه الافتتاحية فإنه يكفي أن نذكر أن أهل الحجاز كانوا يشكلون جماعة المعارضة الأساسية لخلافة معاوية، وأن معاوية وصل إلى منصب الخلافة من خلال التطورات التي تتابعت في الدولة الإسلامية عقب اغتيال الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في أواخر ذي الحجة من سنة ٣٥هـ، ومن أبرز هذه التطورات ثلاثة أحداث، أولها معركة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما في سنة ٣٧هـ، وثانيها موت الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه نتيجة لطعنات خارجي هو عبد الرحمن بن ملجم، وذلك في سنة ٤٠هـ، والثالث تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية

بعد شهور من سنة ٤١ هـ.

ومن مراجعة المصادر التاريخية يلمس الباحث أن عدداً من الشخصيات الحجازية البارزة كانت تتابع هذه التطورات باهتمام بالغ، وأنها صدمت بالنتيجة النهائية التي أسفرت عنها، غير أن هذه النتيجة غدت أمراً واقعاً. وليس في وسع هذه الشخصيات أو بعضها أن تفرض واقعاً آخر غير الواقع الذي تمثل في صيرورة معاوية خليفة للمسلمين، ولم يعد في مقدورها إلا أن تنتظر وتترقب ما سيأتي به الخليفة المقيم ببلاد الشام.

حقيقة تاريخية جديدة تلك التي أخذت تفرض نفسها ابتداء من عام الجماعة، وهي أن معاوية قد أقام خلافته بأسلوب يختلف عن ذلك الذي اتبع في وصول كل من الخلفاء السابقين إلى المنصب الكبير، وهذه الحقيقة تحمل في ثناياها حقيقة تاريخية أخرى، وهي أن بلاد الشام قد انتزعت زعامة العالم الإسلامي من الحجاز مهد الدعوة الإسلامية، ومركز الدولة الإسلامية في سنواتها الزاهرة، هاتان الحقيقتان ألقيتا على كاهل الزعامات الحجازية ـ وخاصة تلك التي عايشت ولو لفترة قصيرة عصر الرسالة وما أعقبه من عهود الراشدين ـ عبئاً ثقيلاً يئنون تحت وطأته وقسوته، وفي الوقت نفسه لا يستطيعون التخلص منه وتحرير مشاعرهم من غلبته وتسلطه.

° ° °

في هذا الجو ألقى معاوية خطبته التي تعتبر افتتاحية، وفيها رسم مؤسس الدولة الأموية للأمة الإسلامية الخطوط العريضة للسياسة التي سيسير عليها، حقيقة ألقيت هذه الخطبة في المدينة المنورة، وفي مواجهة أهل الحجاز، ولكن لا يغيب عنا أن المدينة المنورة قد ظلت مركز الدولة الإسلامية قرابة أربعين سنة، وهذه السنوات تشمل عصر الرسالة، وأن زعماء المدينة المنورة كانوا يمثلون إلى جانب بلاد الحجاز بقية البلاد والأقاليم الإسلامية.

ومن تحليل هذه الافتتاحية يتبين لنا أنها تقوم على أربعة عناصر أساسية، كل

منها يشكل وحدة ضرورية في بنائها وتكاملها. في العنصر الأول أبرز معاوية حقيقة العلاقة بينه وبين أهل الحجاز كما يراها هو، وكما سجلها أحداث التاريخ، وفي العنصر الثاني حدد معاوية مكانته إلى جانب مكانة ثلاثة من الخلفاء السابقين، أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم. وفي العنصر الثالث عرض معاوية سياسته بوضوح وبلا مواربة. واقتصر العنصر الرابع على تحذير معاوية لمستمعيه من الإقدام على عمل يؤدي إلى الفتنة ويفرق كلمة المسلمين.

بتفحص الجزء الأول من الخطبة يدرك الباحث بجلاء أن معاوية قد تكلم بوضوح وصراحة تامة، شأن ابن الصحراء المنطلق والذي يصل إلى غايته من أقصى الطرق، وألفاظ هذا الجزء لا تحمل شيئاً من ظلال الدبلوماسية التي تعمد إلى تغليف الألفاظ بما يخفف من وقعها، كل هذا بعد قسم مؤكد استهل به الرجل جديته:

«فإني والله وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم، ولكن خالستكم بسيفي هذا مخالسة».

ويؤكد هذا الجزء من خطبة معاوية على حقيقتين تاريخيتين هما: عدم سرور أهل الحجاز بخلافة معاوية، والثانية أن القوة هي التي حسمت قضية الخلافة لصالح معاوية، ليست القوة المجردة ولكنها القوة التي استخدمها معاوية بعبقرية ودهاء لم يتوفرا للمعارضة الحجازية.

«..... ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة».

وفي الجزء الثاني من افتتاحيته يقرر معاوية أنه حاول حمل نفسه على الاقتداء في حكمه بواحد من الخلفاء الثلاثة الأوائل، أبي بكر أو عمر أو عثمان رضي الله عنهم، ولكن نفسه نفرت من ذلك وأبت عليه، وذلك لما تميز به كل من هؤلاء الثلاثة بقدرات تقف دونها قدرات معاوية بكثير.

وهذا القسم من الافتتاحية يحمل حقيقتين، الحقيقة الأولى: أن عصر الراشدين الثلاثة عصر متميز، وذلك لأن كلاً منهم عاصر الرسول ﷺ فترة

معاوية نفسه وسياسته، وقد انتقل معاوية إلى هذا الجزء انتقالاً طبيعياً بعيداً عن التكلف والافتعال، فبعد أن أكد صعوبة تكرار أي من عهود الثلاثة الراشدين، وكل منها كان مثالياً، قدم نفسه وسياسته في صورة واقعية للغاية، وأساس هذه السياسة هي المنفعة المشتركة بينه وبين الآخرين، مع التأكيد أنه وان لم يكن خيرهم ففيه خير لهم. ولم يلوح معاوية بالوعود البراقة والأماني الخادعة، بل كان صادقاً مع نفسه ومع القوم حينا طلب منهم أن يكتفوا بقبول بعض حقهم إذا وجدوه لم يقم بكل هذا الحق، ووجد معاوية في السيل وما يرتبط بكثرته من مضار، وما يترتب على القليل منه من منافع - أقول: وجد معاوية في السيل هذا بغيته فضرب به المثل، وكأني به يريد أن يقول للقوم إن بعض الحق الذي يمكن الحصول عليه بيسر وسهولة أفضل من كل الحق الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بالمشقة وركوب الصعب من الأمور.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أكد معاوية أن سياسته تقوم على عدم المبادرة بالعدوان وهذا يحمل في طياته أنه لن يتوانى عن استخدام السيف لدفع العدوان، هذا بالنسبة للمستقبل أما الماضي، ولا شك أنه كان مثار تساؤل الكثيرين من أهل الحجاز، فقد حدد معاوية موقفه منه بكل وضوح حين أكد أنه نسي أو تناسى الماضي بما كان فيه من عداوات وصراعات، وأنه بدلاً من ذلك يبدأ صفحة جديدة لا غبار عليها من مخلفات الأحداث الماضية.

وقد حمل معاوية الجزء الرابع والأخير من افتتاحيته تحذيراً وجهه إلى القوم بالابتعاد عن الفتنة وكل ما يثيرها، وحتى مجرد المحاولة، وذلك لما ستجره على أصحابها من نتائج سيئة على المدى القريب، وأيضاً المدى البعيد.

وختم معاوية افتتاحيته بطلب المغفرة من الله تعالى له وللقوم الحضور.

° ° °

٣ - وصيتا معاوية:

استمر معاوية بن أبي سفيان خليفة حتى وافته منيته في شهر رجب سنة ستين هجرية، ومعنى هذا أنه بقي في هذا

المنصب مده تزيد على تسع عشرة سنة بعدة شهور، وهذه المدة طويلة بالنظر إلى فترات الخلفاء السابقين، فهي تعدل تسعة أمثال الفترة التي أمضاها أبو بكر الصديق، وأربعة أمثال الفترة التي مكثها علي، وتكاد تكون ضعف مدة عمر، وأيضاً ضعف خلافة عثمان رضي الله عن الجميع، ولا شك أن معاوية بطول عهده وبالكثير من القواعد التي أرساها قد خلف بصماته القوية لاعلى الدولة الأموية فحسب، بل وعلى التاريخ الإسلامي أيضاً.

وقد سجل التاريخ لمعاوية أنه ترك في مرضه الأخير وصيتين لابنه يزيد، في الأولى يحدد معاوية لابنه، الذي سيتولى الخلافة من بعده، أبرز المشكلات التي يتوقع أن تواجهه، ويوصيه أو يبدي رأيه في الأسلوب الذي يجب عليه أن ينتهجه في معالجة كل من هذه المشكلات، كما أنه يحدد له أهم خصائص واتجاهات الناس في أهم الأقاليم الذي تتكون منها دولته.

يقول معاوية لابنه يزيد في هذه الوصية(١٤):

«يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب»(١٥).

كما يقول له أيضاً:

«انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم.

وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة، حسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمساً شيئاً قبلك، وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد ﷺ، ولا

أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه. فإن قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير، فإنه خب صب فإذا شخص لك فالبلد له، إلا أن يلتمس منك صلحاً فإن فعل فاقبل».

وفي رواية أخرى:

«فإن هو فعلها بك (أي فإن ثار ابن الزبير ضدك) فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً».

وفي ختام هذه الوصية أوصى معاوية ابنه قائلاً:

«واحقن دماء قومك ما استطعت».

وتنقسم هذه الوصية من حيث الأفكار الرئيسية التي تحملها إلى ثلاثة أقسام: في القسم الأول أبرز معاوية لابنه يزيد ما عمله من أجله وما هيأه لمستقبله، وأنه بهذا قدم له ما لم يقدم أب لابنه، وذلك بالنسبة لما مضى من تاريخ الدولة الإسلامية، وهذه حقيقة، فالخلفاء السابقون لم يعمل أحد منهم من أجل أسرته، أو من أجل بناء ملك يورثه ابنه من بعده، فمعاوية من هذه الزاوية أول من أرسى مبدأ الوراثة في نظام الخلافة. وهو بهذا المبدأ جعلها أقرب إلى الملك العضوض منها إلى نظام الخلافة الإسلامية الذي كان مطبقاً على عهود الخلفاء الراشدين.

وفي القسم الثاني من الوصية يقدم معاوية لابنه معرفته بأهل الأقاليم. واقتصر معاوية في ذلك على الحجاز والعراق والشام. وذلك لأن أبناء هذه الأقاليم الثلاثة هم الذين يحددون مسار الدولة الأموية. الحجاز بمكانته الروحية العالية، والعراق موطن العناصر المناهضة للدولة الأموية، وأخيراً إقليم الشام الذي أقام أبناؤه بسواعدهم وسيوفهم ملك معاوية وأسرته.

فالحجاز هو الوطن الأساسي ليزيد والأسرة الأموية، وأهله لذلك لهم من الحقوق على يزيد ما ليس لسواهم. وعلى يزيد في ضوء هذه الحقيقة أن يكرم من قدم عليه من الحجازيين، أما من غاب فعليه أن يتابع أخباره ويفتش عن أحواله. هذا بالنسبة لأهل الحجاز بصفة عامة، ومن بين الحجازيين أفراد معينون لكل منهم تطلعاته السياسية. وقد

أفردهم معاوية بالحديث فيما بعد.

وأهل العراق يتسمون بصعوبة الانقياد، وباللجج فيما يطلبون، وهم أيضاً مندفعون إلى درجة قد تصيب الدولة الأموية بأفدح الأضرار. وذلك لأنه في هذا الإقليم توطنت الأفكار المعادية للأمويين، وخاصة الأفكار الشيعية. وقد أوصى معاوية ابنه يزيد بالأسلوب الذي يجب عليه أن ينتهجه في التعامل مع أهل العراق، وهو أسلوب يتسم بالانصياع لما يطلبون، وذلك في قوله:

«..... فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن يشهر عليك مائة ألف سيف».

ويؤكد حديث معاوية عن أهل العراق رؤيته السياسية الصادقة والبعيدة، وأوضح الأدلة على ذلك موقف أهل العراق المناوئ لكل من مروان وعبد الملك، وهو الموقف الذي حمل الأخير على أن يرميهم بالحجاج بن يوسف الثقفي الذي ابتدأ عهده هناك بخطبته المشهورة بالبتراء، والتي قال فيها[١٦]:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله إني لأحمل الشر محمله وأحذوه بفعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى».

ناهيك عن موقف أهل العراق من خلافة يزيد نفسه، ودورهم في حركة الحسين بن علي، وهي الحركة التي كانت لها آثارها السلبية البعيدة على مستقبل الدولة الأموية.

أما أهل الشام فهم على العكس من أهل العراق يتميزون بالإخلاص للأسرة الأموية، والتفاني في سبيل دولتها، ومن ثم فإنهم أحق الناس بأن يتخذ منهم يزيد بطانته والمقربين إليه، وإن يجعل منهم القوة التي يقارع بها الأعداء، ومعاوية في رؤيته لأهل الشام ينطلق من تجربته الخاصة معهم، فقد تولى الحكم عليهم كأمير لسنوات طويلة[١٧] نجح معاوية

خلالها في توثيق العلاقات الطيبة بينه وبينهم، وكانت هذه العلاقات هي الأساس الذي جابه به معاوية علي بن أبي طالب في أزمة العلاقات بين الرجلين، وهي الأزمة التي وصلت إلى ذروتها في معركة صفين التي دارت أحداثها في سنة ٣٧هـ. وبعد هذه المعركة استمر دعم أهل الشام لمعاوية حتى وصلوا به إلى منصب الخلافة.

كما يسجل التاريخ لأهل الشام دورهم الإيجابي في مساندة مروان بن الحكم ضد عبدالله بن الزبير، وهي المساندة التي أسفرت عن إعادة تأسيس الدولة الأموية بعد سقوطها وما بدا من أن الخلافة قد آلت إلى عبدالله بن الزبير في الحجاز.

ويبرز لنا مدى صدق الحس السياسي لدى معاوية في فهمه لأهل الشام من أنهم ـ وبعد حوالي مائة عام من سقوط الدولة الأموية ـ كانوا لا يزالون شديدي الولاء للدولة الأموية[١٨]، ولا يستبعد أن تكون الاختلافات التي كونت العلاقات بين العراق والشام في الكثير من فترات التاريخ تعود بجذورها الأولى إلى تلك

تاريخ الدولة الإسلامية.

السنوات المبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية.

وفي الحديث عن أهل الشام أوصى معاوية ولده بألا يترك أهل الشام يستوطنون بلاداً غير بلادهم، لأنهم في هذه الحالة سيفقدون خصائصهم المميزة، ومن أبرزها الإخلاص للأسرة الأموية، وهنا ربط معاوية بين البيئة وطباع وأخلاق وخصائص البشر، وهي نظرية أكدها علماء الاجتماع وفي مقدمتهم ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٩هـ.

° ° °

وبعد أن انتهى معاوية من وصاياه ونصائحه ليزيد بشأن أسلوب التعامل مع أهل الأمصار الثلاثة، وهي وصايا ونصائح تتسم بالعموميات ـ أقول: بعد هذا انتقل معاوية في وصيته إلى الحديث عن الرجال الذين يخشى خطرهم على يزيد وخلافته، وهنا يتضح صدق رؤية معاوية المستقبلية، ودقته في فهم الرجال وتصوره لمواقفهم، وأيضاً تبرز كياسته والتي تمثلت في وصيته لابنه بكيفية

التعامل مع كل حالة على حدة. أما الرجال الذين يرى معاوية في كل منهم مناوئاً ليزيد فهم ثلاثة الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير.

وحديث معاوية عن كل من هؤلاء الثلاثة يبدأ بتوضيح فهم معاوية له، ورأيه فيه من حيث قبول أو رفض خلافة يزيد، ويختم معاوية حديثه بالتركيز على الأسلوب الذي يجب على يزيد أن يتعامل به مع كل. فرأى معاوية في عبدالله بن عمر أنه[19] «رجل قد وقذته العبادة فإن لم يبق أحد غيره بايعك». أي أنه رجل قد كرس نفسه للعبادة وغدت أمور الدين شغله الشاغل، ولكنه لا يجب أن يخرج على ما يراه أهل الحجاز فإذا لم ينافسك في المنصب أحد بايعك وأذعن لخلافتك.

أما الحسين بن علي رضي الله عنهما فهو في رأي معاوية رجل بعيد عن التريث وإحكام التدبير، سريع الاستجابة والانصياع، وأن أهل العراق سيدفعونه للثورة ضدك، فإذا حدث هذا وتغلبت عليه فلا تمعن في الانتقام، بل يتحتم أن تعفو عنه وتصفح عن أخطائه. وذلك لما له من حقوق أساسها حق الرحم وقرابته اللصيقة بالرسول ﷺ.

أما ثالث الثلاثة فهو عبدالله بن الزبير، وهو في رأي معاوية أخطرهم وأشدهم كراهية لخلافة يزيد، وتمكن خطورته في أنه يعرف جيداً كيف يتربص وكيف يراوغ، ويرجح معاوية أن ابن الزبير سيخرج على خلافة يزيد، وفي هذه الحالة يجب على يزيد أن يتصدى له بكل ما أوتي من قوة، وفي حالة الانتصار عليه لا يعامله بالرأفة كما في حالة الحسين، بل لا بد من تمزيق أشلائه وتقطيع أوصاله. وفي الوقت نفسه يجب على يزيد ألا يمعن في إراقة الدماء، وبخاصة دماء أهل الحجاز الذين قد يساندون ثورة ابن الزبير.

° ° °

هذه هي الوصية الأولى، وقد حفظ لنا التاريخ وصية ثانية يقال إن معاوية قبيل موته أوصى بها ابنه يزيد، وفي هذه الوصية يقول معاوية[20]:

«يا يزيد اتق الله، فقد وطأت لك الأمر. ووليت من ذلك ما وليت، فإن

كان بك خيراً فأنا أسعد به. وإن كان غير ذلك شقيت به. فارفق بالناس وأغمض عما بلغك من قول تؤذي به وتنتقص به. وطأ عليه يهنك عيشك وتصلح لك رعيتك. وإياك والمناقشة وحمل الغضب. فإنك تهلك نفسك ورعيتك.

وإيـاك وخيرة أهـل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم، ولن لهم لينا لا يروا منك ضعفاً ولا خوراً. وأوطئهم فراشك وقربهم إليك وأدنهم منك، فإنهم يعلمون لك حقك. ولا تهنهم ولا تستخف بحقهم فيهينوك ويستخفوا بحقك ويقعوا فيك. فإذا أردت أمراً فادع أهل السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى فشاورهم ولا تخالفهم. وإياك والاستبداد برأيك، فإن الرأي ليس في صدر واحد. وصدق من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف، وأخزن ذلك عن نسائك وخدمك. وشمر إزارك وتعاهد جندك وأصلح نفسك تصلح لك الناس، ولا تدع لهم فيك مقالاً فإن الناس سراع إلى الشر. واحضر الصلاة، فإنك إن فعلت ما أوصيك به عرف الناس لك حقك. وعظمت مملكتك وعظمت في أعين الناس.

واعرف شرف أهل المدينة ومكة فإنهم أصلك وعشيرتك. واحفظ لأهل الشام شرفهم فإنهم أهل طاعتك. واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب تعدهم فيه منك بالمعروف فإن ذلك يبسط آمالهم. وإن وفد إليك وافد من الكور كلها فأحسن إليهم وأكرمهم فإنهم لمن وراءهم.

ولا تسمعن قول قاذف ولا ما حل فإني رأيتهم وزراء سوء».

وهذه الوصية، من حيث المحتويات العامة، تنقسم إلى ستة أقسام، في كل قسم تحدث معاوية إلى ابنه عن قضية من القضايا التي تشغل باله، ورسم له النهج الذي يراه مناسباً في معالجة كل من هذه القضايا، وكأني بمعاوية يريد أن يقول لابنه إنه، وهو الرجل الداهية ذو الخبرة العميقة والطويلة، يأمل من ابنه أن يسير على نفس الأسس والمبادئ التي أرسى دعائمها والتي أثبتت نجاعتها في الظروف الصعبة والمعقدة التي واجهت معاوية

سواء في الخطوات والمراحل التي انتهت بتأسيس الدولة الأموية، أم في إدارة هذه الدولة والسير بها بنجاح على مدى ما يقرب من عشرين سنة.

في القسم الأول من الوصية أوصى معاوية ابنه بالرفق بالناس وتجاهل الهنات التي تقع من بعضهم، والترفع عن شغل نفسه بمثل هذه الأمور أو المحاسبة عليها، وأبرز له أن مثل هذه السياسة ستؤدي إلى نتيجتين إيجابيتين، أولاهما الراحة النفسية، والثانية إصلاح الرعية وحبها له، وحب الرعية واحدة من الغايات السامية التي يحرص الحاكم أن تضيء سجل تاريخه، كما حذر معاوية ابنه من الدخول في متاهات الجدل والمناقشة التي تؤدي بالضرورة إلى الإثارة والغضب، وإذا سيطر الغضب على الخليفة أو الحاكم اختل ميزان العدل في يده، وفي هذا الاختلال هلاك للرعية وتدمير للدولة.

وفي القسم الثاني من وصيته حذر معاوية ولي عهده من الاستهانة بأهل الشرف والتعالي عليهم في حين أنه يجب عليه أن يتعامل معهم بالرفق واللين، ولكن حذار من اللين الذي يوحي بالعجز والضعف، كما طلب معاوية من ابنه أن يخص أهل الشرف بالقرب منه، وأن يحتفظ لهم بمكانة متميزة في مجالسه، إذ أن مثل هذه المعاملة الكريمة ستجد من أهل الشرف تفهماً فيقابلونها بالتقدير والعرفان. أما الإساءة إليهم والتحقير من شأنهم والازدراء بهم فسيرد عليه أهل الشرف بإهانة يزيد والاستخفاف به، وهذا ما لا يليق به كخليفة. وهنا نلحظ أن معاوية قد أعطى أهل الشرف وزناً وأهمية تتجاوز نسبتهم العددية، وذلك لأنهم يشكلون زعامات لها تأثيرها الفعال على الكثيرين من فئات الرعية.

وفي القسم الثالث أوصى معاوية ابنه، في معاجلة الأمور الهامة، باستشارة من هم أكبر منه سنّاً من ذوي الخبرة والدين، وضرورة الأخذ بما يبدون من آراء، وحذره من الاستبداد بالرأي، لأن الرأي الفردي يتسم غالباً بالقصور. كما أوصاه بأن يحتفظ بالأمور الهامة بعيداً عن علم النساء والخدم، وواضح من هذا أن معاوية كان يدرك جيداً ما يوصم به النساء عادة من التسرع في الرأي

والافتقار إلى الدقة والفراسة في معالجة الأمور والحكم على الأحداث، ومن ثم خشي على ابنه أن يصدر في معالجته لبعض القضايا الهامة، ذات الصلة المباشرة بالدولة، عن مثل هذه المستويات. والخدم هم الآخرون منهم من يكون مدسوساً ومنهم من تكون هوايته نقل الأخبار مع التهويل والتشويه مما يفسد على المرء الكثير من خططه ومعالجاته، وبالنسبة للشخص العادي يهون الأمر، أما بالنسبة لمن هو في مثل وضع يزيد فإن هذا التهاون ينقلب إلى تفريط بالغ الخطورة عليه وعلى دولته.

وفي القسم الرابع أوصى معاوية ابنه بالجد والعمل الدءوب، ورعاية الجيش ومراقبته، وأهم ما في هذا القسم قول معاوية ليزيد:

وأصلح نفسك تصلح لك الناس. ولا تدع لهم فيك مقالاً. فإن الناس سراع إلى الشر».

نعم فالبداية الحقيقية لأي إصلاح على المستوى العام تكمن أولاً في إصلاح المسئول الأول لنفسه، وذلك لما للقدوة من فاعلية وتأثير لا تنتجه المواعظ ومنمقات الكلام. كما أوصى معاوية ابنه بألا يترك لأي نقطة ضعف ـ مهما بدت صغيرة ـ أن تلحق به وتكون مثاراً للأقاويل، وذلك لأن النفوس البشرية جبلت على سرعة التصديق للجوانب السيئة والنواحي الناقصة، والعاقل من يغلق تماماً مثل هذه الأبواب.

وقد خصص معاوية القسم الخامس من الوصية في التأكيد على يزيد بضرورة معرفته لشرف ومكانة أهل مكة والمدينة، وأيضاً أهل الشام، كما حث على أن يبدأ عهده بالمعروف، وأن يبعث إلى أهل الأمصار بكتب تحمل نواياه الطيبة، كما أوصاه بأن يعامل من يفد عليه من الأمصار بالإحسان والتكريم، لأنهم سينقلون الصورة التي يعاملون بها إلى أبناء أمصارهم، ومن مصلحته ومصلحة دولته أن تكون الصورة التي تنقل عنه صورة مضيئة.

وفي القسم السادس أوصى معاوية ابنه بألا يصغي لأولئك الذين يحلو لهم أن ينالوا من الآخرين، فمثل هؤلاء تكون سعاياتهم من أجل النيل من أفراد

يكنون لهم الكراهية والعداء، ولكنهم يقدمون هذه السعايات في إطار الحرص على تقديم النصيحة وإسداء المعروف، وتجربة معاوية مع هذا الصنف من الناس أنهم وزراء شر ونصحاء سوء.

٤ ـ شخصية معاوية من وصاياه:

هذا هو مؤسس الدولة الأموية من افتتاحيته ووصيته أو وصاياه[٢١]، وهي تؤكد كما سبق أن أشرنا أنه رجل دولة من طراز نادر، وأنه معلم وصاحب مدرسة سياسية بارزة. ويكفي أن نعرف أنه قد تجلت من وصاياه الرؤية السياسية البعيدة التي تميز بها هذا الرجل، وأن عدم التزام ابنه يزيد بهذه الوصايا قد أدى إلى سقوط الفرع السفياني في الدولة الأموية.

وفي إطار الرؤية السياسية البعيدة لمعاوية يكفي أن نشير إلى العلاقات بين الأسرة الأموية من ناحية، وكل من أهل الحجاز وأهل العراق وأهل الشام من ناحية ثانية، وهي رؤية أكدت الأحداث صدقها على مدى العديد من الأجيال.

وإلى جانب رؤيته السابقة كانت لمعاوية فراسة في الرجال الذين رأى في كل منهم مرشحاً لمناوأة يزيد في الخلافة، ولا تقف هذه الفراسة عند مجرد ذكر أسماء هؤلاء الرجال، بل إنها تتعدى ذلك إلى تحديد خصائص شخصية كل منهم وأسلوبه المحتمل في التصدي ليزيد، وأيضاً الطريقة التي يجب على يزيد أن يتبعها في معالجة الموقف مع كل.

هذه الجوانب في وصية معاوية تبرز مدى ما كان يتمتع به هذا الرجل من رؤية سياسية بعيدة وصادقة، بالإضافة إلى دقة في الحكم، وعمق وشمول في فهم الأمور، وتتضح هذه الأبعاد لوصايا معاوية فيما آل عليه حال الدولة الأموية نتيجة لخروج يزيد على هذه الوصايا وعدم الالتزام بها.

ونعيد إلى الذاكرة ما أوصى به معاوية ابنه في التعامل مع الحسين بن علي رضي الله عنهما في حالة خروجه على يزيد، فقد أوصى معاوية ابنه بقوله:

«فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه».

وفعلاً أعلن الحسين خروجه على يزيد، وذلك بتشجيع من أهل العراق تماماً كما ارتأى معاوية، وسجل التاريخ لقوات الدولة الأموية أنها تغلبت على الحسين وجماعته، وكان من الممكن أن يقف الأمر عند هذا الحد ويعفو يزيد عن الحسين تنفيذاً لوصية معاوية، ولكن شهوة الانتقام سيطرت على قائد قوات يزيد، وتطور الأمر إلى استشهاد الحسين ومعظم من كان معه من أهل البيت بصورة بالغة القسوة جعلت من مأساة استشهادهم سبباً مباشراً من أسباب سقوط دولة الفرع السفياني.

وإلى جانب خروج يزيد على وصية أبيه في شأن الحسين بن علي، فإنه أيضاً خرج على ما أوصاه به أبوه في شأن أهل المدينة، فقد أوصاه بهم خيراً في وصيته حيث قال له:

«انظر أهل الحجاز فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب».

كما قال له أيضاً في وصيته الثانية:

«واعرف شرف أهل المدينة ومكة فإنهم أصلك وعشيرتك».

هذا ما أوصى به معاوية ابنه بشأن أهل الحجاز. بيد أن يزيد لم يع هذه الوصية ولم يأخذ بها، وها هو ذا قائده مسلم بن عقبة يبالغ في إذلال أهل المدينة عقب الانتصار عليهم في موقعة الحرة، فقد سجل التاريخ على مسلم بن عقبة، قائد يزيد، أنه أجبر أهل المدينة على أن يكون استسلامهم ذليلاً للغاية حيناً حتى أن يكون نص البيعة[٢٢]:

«على أنه خول ليزيد بن معاوية يحكم في أهليهم ودمائهم وأموالهم ما شاء».

وفوق هذا الإذلال سجل التاريخ على مسلم بن عقبة أنه أباح المدينة وانتهك حرمتها عدة أيام[٢٣]. وللباحث أن يقارن هذه الصورة البشعة بموقف الرسول ﷺ من أهل مكة عقب فتحها، الموقف النبيل الذي عبر عنه الرسول في قوله لأهل مكة:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء».

على أية حال، فإن عدم التزام يزيد بوصية أبيه في معاملة أهل المدينة معاملة كريمة تليق بهذه المدينة ومكانتها السامية

في تاريخ الدعوة الإسلامية ـ أقول: إن عدم التزام يزيد بوصية أبيه كانت سبباً مباشراً في تقويض حكم الفرع السفياني من الدولة الأموية.

ومن إضافة العناصر التي احتوت عليها الوصيتان إلى تلك التي برزت في الافتتاحية، يتبين لنا أن معاوية كان سياسياً بارعاً يتحلى بالرؤية البعيدة والفهم العميق، وكان أيضاً رجل دولة من طراز متميز، وأنه من هاتين الزاويتين فاق الكثيرين من أبناء جيله، وقد تجسد تفوقه هذا في النجاح الذي أحرزه في إقامة دولة باسم الأسرة الأموية، وذلك على الرغم من انزواء العصبية القبلية أمام القيم الإسلامية التي شكلت أسس الحياة وقواعد السياسة في هذه الحقبة من تاريخنا الإسلامي.

٥ ـ افتتاحية يزيد:

ومن معاوية ينتقل بنا الحديث إلى الخليفة الثاني يزيد بن معاوية والذي كان حينها تولى الخلافة في منتصف العقد الرابع من العمر، فقد سجل له التاريخ أنه افتتح عهده بخطبة قال فيها بعد حمد الله والثناء عليه(٢٤):

«إن معاوية كان حبلاً من حبال الله مده الله ما شاء أن يمده، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه، وكان دون من كان قبله، وخير ممن بعده، إن يغفر الله له فهو أهله. وأن يعذبه فبذنبه.

وقد وليت الأمر بعده، ولست أعتذر من جهل ولا أشتغل بطلب علم، فعلى رِسْلِكم فإن الله لو أراد شيئاً كان».

ومما قاله في خطبته هذه:

«إن أبي كان يغزيكم البحر ولست حاملكم في البحر، وإنه كان يشتيكم بأرض الروم. فلست أشتي المسلمين في أرض العدو، وكان يخرج العطاء أثلاثاً وإني أجمعه لكم».

وتتكون هذه الافتتاحية من ثلاثة أقسام، في الأول منها تحدث يزيد عن أبيه معاوية حيث حدد مكانته بالنسبة للسابقين وأيضاً بالنسبة للاحقين، ويزيد في حكمه على أبيه من هذه الناحية يتفق جزئياً وما قاله معاوية عن نفسه في افتتاحيته، وأعني بذلك قوله:

«ولقد أردت نفسي على عمل أبي بكر وعمر فلم أجدها تقوم بذلك،

ووجدتها عن عمل عمر أشد نفوراً، وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت علي، وأين مثل هؤلاء، هيهات أن يدرك فضلهم».

ويبدو من كلام الرجلين حول هذه النقطة أنهما يجعلان عصر الرسالة عصر الذروة من حيث قوة التمسك بتعاليم الدين الإسلامي، هذا التمسك الذي يعتبر المعيار الذي يوزن به الناس، وفي مقدمتهم الخلفاء، وتتحدد من خلاله مكانتهم والحكم عليهم في التاريخ، وبعد عصر الرسالة يأتي عصر الراشدين، وهكذا .... ومعاوية بهذا المعيار ونظراً لأن صحبته للرسول ﷺ، كانت أقل من صحبة أي من الخلفاء الثلاثة فإنه يأتي دونهم في المكانة، كما أن معاوية، وبهذا المعيار نفسه، يعتبر أفضل من الذين سيأتون بعده[٢٥].

وفي هذا الكلام قدر كبير من الصواب، غير أنه لا يمكن أن يسلم به على علاته أو دون قيود؛ لأن معنى ذلك أن العامل الزمني هو الفيصل في الحكم على الأشخاص، وفي الوقت نفسه يتجاهل أعمال الإنسان ومبادئه، والتي تمايز بين الأفراد، فترفع من منزلة هذا وتنزل بمكانة ذاك، والأعمال هي المعيار الإسلامي الذي توزن به أقدار الناس.

على كل حال، من الممكن التسليم بما قاله الرجلان في جزئيته الأولى، أي تحديد مكانة معاوية بالنسبة لمن سبقوه، أما بالنسبة للجزئية الثانية، أي اعتبار معاوية أفضل من الذين سيأتون بعده، فهو من الأحكام العامة والسابقة لأوانها، وبالتالي لا يمكن التسليم بها.

وفي القسم الثاني أوضح يزيد أنه قد تولى الأمر من بعد أبيه معاوية، وأنه يتحمل مسئولية وأعباء هذا المنصب الخطير بصورة كاملة، لأنه يعرف تماماً مهام منصبه، ولا يوجد أمر آخر يشغله أو يصرفه عن واجباته:

«ولست أعتذر من جهل ولا أشتغل بطلب علم».

وفي هذا القسم من الافتتاحية يبدو من يزيد بعده عن التواضع الذي وضح بجلاء في افتتاحية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما يبدو أيضاً بعد يزيد عن الممكن الذي ركز عليه معاوية

افتتاحيته، وإن دل هذا الموقف من يزيد على شيء، فإنما يدل على أنه في قرارة نفسه كان يشعر بتضاؤله، ولكنه أراد أن يخفي هذا التضاؤل فكانت كلماته البعيدة عن التواضع.

وفي القسم الثالث قدم يزيد في افتتاحيته مجموعة من الوعود معظمها لم يكن على حسابه، بل على حساب السياسة العامة للدولة التي سجلها التاريخ على عهد معاوية[٢٦]، في الوعد الأول يقول يزيد:

«إن أبي كان يغزيكم البحر ولست حاملكم في البحر»

وعن الوعد الثاني يقول:

«وإنه كان يشتيكم بأرض الروم فلست أشتي المسلمين في أرض العدو».

وقد ركز يزيد على هذين الأمرين لأنهما كانا عنصرين بارزين في السياسة التي سار عليها معاوية تجاه الدولة البيزنطية، ويبدو أن المقاتلين المسلمين كانوا يعانون من ذلك كثيراً لشدة البرد في بلاد الروم بالنسبة لهم، وأن ركوب البحر كان بشكل واحدة من الصعاب الكبيرة التي كانوا يواجهونها، ويزيد نظراً لأنه تولى قيادة بعض الحملات ضد بلاد الروم أراد أن يلمس بعض الجوانب ذات الحساسية الشديدة لدى الكثيرين حتى يضمن تأييدهم وتعاطفهم معه وترحيبهم بخلافته. فلا غرابة إذن أن يكون تعليق الذهبي على هذه الافتتاحية هو قوله[٢٧]:

«فافترقوا يثنون عليه».

وأن يكون تعليق ابن كثير[٢٨]:

«فافترق الناس عنه وهم لا يفضلون عليه أحداً».

ونظراً لقصر عهد يزيد فإن الباحث لا يستطيع أن يتعرف بصورة قاطعة على مدى التزامه بما وعد به القوم في افتتاحيته. بيد أنه يلاحظ أن ما سجله التاريخ من غزوات ضد بلاد الروم في عهد يزيد كانت من نوع الصوائف، واحدة في سنة ٦١ والأخرى في السنة التالية[٢٩]. وأنه لم يحدث في عهد يزيد أن توجهت حملة إلى أي من الجزر البيزنطية في البحر المتوسط.

° ° °

والحكم على يزيد من خلال افتتاحيته يبدأ من تعليق ابن كثير عليها، وهو التعليق الذي قال فيه:

«فافترق الناس عنه وهم لا يفضلون عليه أحداً»

وذلك لأن يزيد في هذه الافتتاحية قدم للقوم عدة وعود تعني في مجموعها آمالاً براقة ومشرقة بالنسبة للعامة.

وحقيقة الأمر أن هذه الوعود تتكون من شقين، شق يتصل بالسياسة الخارجية للدولة، وشق آخر يتصل بالفئات المستحقة للعطاء، ووعدا الشق الأول يعنيان أمراً واحداً بالنسبة للدولة الإسلامية، يعنيان نوعاً من الاسترخاء أو التكاسل في مجابهة الدولة البيزنطية، وذلك على عكس ما كان عليه الحال إبان عهد معاوية، وهذا النوع من الوعود يعني مغالطة كبيرة؛ لأنها وعود على حساب الغير، أو على حساب الدولة الإسلامية كما سبق أن أسلفنا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا الاسترخاء قد انعكس سلبياً في شكل نشاط كبير، ولكن في مواجهة القوى الداخلية، كما حدث في معالجة حركة الحسين بن علي أو تمرد أهل المدينة المنورة. وربما يدفع البعض بأن مسئولية يزيد، بوصفه خليفة، كانت تحتم عليه أن يقضي على حركة الحسين بن علي وأن يجابه تمرد أهل المدينة. وهذا الدفع صحيح ومقبول، والمرفوض هو المبالغة في التشفي والإيغال في الانتقام.

والصورة من جانبها مناقضة تماماً لما كانت عليه سياسة الدولة الأموية تحت قيادة معاوية، وهي سياسة كانت تميل إلى الاسترخاء داخلياً والنشاط في مواجهة الأمبراطورية البيزنطية، وبما أن سياسة معاوية قد أثمرت من الناحية العملية العديد من النتائج الإيجابية، فإن السياسة المناقضة، سياسة يزيد، كان من المتوقع لها أن تنتج آثاراً سلبية. وهذا ما حدث بالفعل. ويكفي أن نعرف أن كل عوامل انهيار دولة الفرع السفياني قد تجمعت في الفترة الوجيزة التي أمضاها يزيد خليفة للمسلمين.

فيزيد لم يكن الشخص الذي اقتدى بأبيه، أو أفاد من تجاربه والتزم بوصاياه،

وأيضاً لم يكن الشخص الذي انتهج سياسة فاقت سياسة أبيه في العمل على توسيع نطاق الدولة. أو جمع الكلمة وتوحيد الأمة تحت راية الدولة الأموية.

هذا هو يزيد من افتتاحيته. ولم أعثر في المصادر التي رجعت إليها على وصايا تنسب إليه حتى تزداد معرفتنا بشخصيته. هذه الشخصية التي يمكن إجمال القول فيها بأنها كانت مناقضة لشخصية أبيه معاوية الذي يعتبر واحداً من دهاة[٣٠] العرب.

● الهوامش ●

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ٣ ص ١٨٢، ١٨٣.

(٢) يوجد نص لهذه الخطبة في الأخبار الموفقيات ص ٥٧٩، وأيضاً لدى ابن الأثير (الكامل جـ٢ ص ٣٣٢) ونص الزبير بن بكار وابن الأثير يتفقان في عمومها مع النص الذي قدمه ابن سعد مع إضافة لدى الأخير تتمثل في قوله «إن شاء الله تعالى لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قومه إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

(٣) ابن الأثير، الكامل جـ٢ ص ٤٢٦، ـ ٤٢٧.

(٤) ابن سعد، المصدر السابق جـ٣ ص ٢٧٤.

(٥) ابن الجوزي، مناقب عمر بن الخطاب المطبوع تحت عنوان: تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٦١.

(٦) ابن سعد، المصدر السابق جـ٣ ص ٦٢.

(٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ١ ص ٢٧٢.

(٨) المصدر السابق جـ ١٧ ص ٥ ـ ٦.

(٩) توجد لدى ابن كثير ثلاث روايات حول تاريخ هذه الخطبة لمعاوية، أولاها أن معاوية قدم المدينة عام الجماعة (٤١ هـ) وهناك ألقى هذه الخطبة من على المنبر بمسجد الرسول ﷺ، والثانية أن هذا حدث عام حج ٤٤ هـ، والثالثة أنها حدثت أثناء حجه في سنة ٥٠ هـ (البداية والنهاية جـ٨ ص ١٣٢)، ومن مراجعة المصادر التاريخية لا نجد فيها ما يفيد أن معاوية ذهب إلى الحجاز عام الجماعة، وأنه أقام الحج في سنة ٤٤ هـ وسنة ٥١ هـ، وهذا يعني سقوط الرواية الأولى، أما الرواية الثالثة فإن معاوية قد ركز اهتمامه في سنة ٥١ هـ على قضية كانت آنذاك بالغة الأهمية بالنسبة له، تلك هي مبايعة ابنه يزيد بالخلافة من بعده، ورغبته الملحة في حمل زعماء الحجاز على البيعة ليزيد بولاية العهد، وقد شغلت هذه القضية جل وقته في الحجاز بحيث لم تترك مكاناً لقضية أخرى، وهذا إضافة إلى أن محتوى الخطبة يحتم أن يكون توقيتها في أوائل عهد معاوية، وليس بعد مضي عشرة أعوام من خلافته. وهذا يعني أيضاً سقوط الرواية الثالثة. وتبقى بعد هذا الرواية الثانية فهي أكثر الروايات قبولاً وتوافقاً بين توقيتها ومحتواها.

(١٠) نص الخطبة منقول من الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٣ ص ١٤٨ ـ ٤٧٩، كما يوجد النص نفسه لدى ابن عبد ربه (العقد الفريد جـ٣ ص ١٣٩) وابن كثير (البداية والنهاية جـ٨ ص ١٣٢) ولكن مع تغيير شكلي في بعض الألفاظ.

(١١) ابن كثير جـ٨ ص ٢٢٩.

(١٢) ابن الأثير جـ٤ ص ٥.

(١٣) وردت هذه العبارة في نص الخطبة لدى ابن كثير جـ٨ ص ١٣٢.

(١٤) أورد الطبري روايتين لهذه الوصية (انظر الجزء السادس ص ١٧٩ ـ ١٨٠) كما أورد ابن الأثير (جـ٤ ص ٦) وكذلك ابن خلدون (جـ٣ ص ٤٠ ـ ٤١) الوصية التي أوردها الطبري في الرواية الأولى، ومن المصادر الأدبية انظر الجاحظ (البيان والتبيين جـ٢ ص ٦٦) وابن عبد ربه (العقد الفريد جـ٢ ص ١٤١).

(١٥) هذا النص من الوصية الأولى، انظر الطبري جـ٦ ص ١٧٩.

(١٦) الطبري جـ٧ ص ٢١٠.

(١٧) ابتداء من سنة ١٨هـ.

(١٨) ذكر الطبري أن رجلاً تعرض للمأمون بالشام قائلاً له: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لأهل خراسان، فقال المأمون: أكثرت علي يا أخا أهل الشام، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه ... أغرب فعل الله بك» انظر الطبري جـ١٠ ص ٢٩٦.

(١٩) كما ورد في نص الوصية لدى كل من ابن الأثير (جـ٤ ص٦) وابن خلدون جـ٣ ص ٤٠ ـ ٤١.

(٢٠) ابن كثير جـ ٨ ص ٢٢٩ـ ٢٣٠

(٢١) ذكر أن معاوية وهو في مرضه الأخير خطب في نفر من قريش خطبة وداعية، وتبرز في هذه الخطبة معرفته الدقيقة بأنواع الرجال، انظر الجاحظ (البيان والتبيين جـ٢ ص ٢٨) وابن عبد ربه (العقد الفريد جـ٢ ص ١٤١) وابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة جـ١ ص ٤٠).

(٢٢) تاريخ خليفة ابن خياط جـ١ ص ٢٣٠.

(٢٣) الطبري جـ٧ ص ١١.

(٢٤) أورد هذه الافتتاحية كل من المسعودي (مروج الذهب جـ٣ ص ٧٥) وابن كثير (جـ٨ ص ١٤٣ ـ ١٤٤) كما أورد الذهبي القسم الأخير منها (سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ٣٧) وقد نقلنا القسمين الأول والثاني عن المسعودي، ونقلنا القسم الأخير عن الذهبي، وقد ألقى يزيد هذه الخطبة في اليوم الرابع من بداية خلافته.

(٢٥) نذكر القارئ بما سبق أن أشرنا إليه من أن معاوية خطب قبل مرضه الأخير خطبة قال فيها: «ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه، كما أن من قبلي كان خيراً مني». (ابن الأثير جـ٤ ص ٥، ص ١٢ من هذا البحث).

(٢٦) من مراجعة تاريخ معاوية نجد أنه كان يحرص على أن يبعث جيشاً إلى بلاد الروم كل شتاء، وأن ركوب البحر كان وسيلة القوات الإسلامية في عملياتها ضد دولة الروم وخاصة ضد الجزر التابعة لها في البحر المتوسط (انظر خليفة بن خياط جـ١ ص ١٩٠ وما بعدها، وانظر أيضاً المصادر الأخرى في التاريخ للسنوات من سنة ٤٣ إلى سنة ٦٠.

(٢٧) سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ٣٧.

(٢٨) البداية والنهاية جـ٨ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢٩) خليفة بن خياط جـ١ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣٠) ابن حبيب، المحبر ص ١٨٤.

الخلفاء الأمويون من افتتاحياتهم ووصاياهم

الفرع المرواني

للدكتور
حامد غنيم أبو سعيد

١ ـ الفرع المرواني:

لم يترك يزيد بن معاوية وصية لابنه الذي عهد إليه بالخلافة من بعده. ولا لأبناء الأسرة الأموية. ولا للأمة الإسلامية. ويبدو أنه لم يكن يرى أن الموت سيداهمه وهو لم يزل بعد في سن الشباب. ومن ثم فإنه لم يلتفت إلى هذه الناحية كما التفت إليها أبوه معاوية من قبل. أو أنه لم يجد شيئاً يقوله في وصية. فهو مجرد من التجارب والخبرات التي يتحتم عليه أن يبرزها للأجيال اللاحقة. كما أن رصيده في الرؤى السياسية لا يستأهل أي نوع من التسجيل.

على أية حال، فإنه بموت يزيد بن معاوية في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ يمكن القول بأن دولة الفرع السفياني قد سقطت أو انتهت. فقد تولى الخلافة بعده، وبعهد منه، ابنه معاوية الذي كان له من العمر آنذاك حوالي عشرين سنة، ولم يعمر معاوية الحفيد في منصبه سوى فترة وجيزة ارتفع بها البعض إلى ثلاثة أشهر ونزل بها آخرون إلى عشرين يوما[١]، ومات معاوية الحفيد دون أن يعهد بالخلافة إلى أحد. بل يذكر عنه أنه قال بخصوص هذا الموضوع[٢]:

«..... أما بعد فإني ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده. فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم. فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم».

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن التاريخ سجل لعبدالله بن الزبير أنه لم يعلن البيعة ليزيد. وذلك كما توقع معاوية في وصيته. وكان عبدالله بن الزبير يرى في الخلافة أن تكون شورى بين الأمة، وبعد وفاة يزيد أعلن ابن الزبير نفسه خليفة[٣]. وبدأ حينذاك وكأن الخلافة الإسلامية قد خرجت عن الأسرة الأموية. وأن مركز الخلافة قد انتقل من دمشق وعاد إلى الحجاز من جديد. نعم في شهر رجب من سنة ٦٤ هـ تمت البيعة في مكة لعبدالله بن الزبير بالخلافة. ومن ثم أخذ نفوذه في الاتساع حتى شمل معظم أقاليم الدولة الإسلامية بما فيها بلاد الشام نفسها[٤].

هذا هو المسار الذي كانت تتحرك فيه التطورات خلال منتصف سنة ٦٤ هـ، ولكن، وفي منتصف شهر ذي القعدة من السنة نفسها، أخذت تظهر بوادر تحوّل في مسار التاريخ الإسلامي، وكانت الخطوة الأولى في هذا التحول بيعة أنصار الدولة

---

(١) الذهبي. سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ١٣٩.
(٢) ابن الأثير جـ٤ ص ١٣٠. وانظر أيضاً ابن كثير، جـ٨ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط جـ١ ص ٢٥٣.
(٤) المصدر السابق جـ١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣. ٢٤٥.

الأموية لمروان بن الحكم بالخلافة، وهذه البيعة تعتبر بداية تأسيس دولة الفرع المرواني. وقد سجل التاريخ لمروان أنه عقب الاستيلاء على مصر(٥) استعمل ابنه عبد العزيز عليها، وقال له موصياً، حين ودعه(٦):

«أرسل حكيماً ولا توصه، أي بني انظر إلى عما لك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم.

وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب؛ فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق، واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إليَّ يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى.

وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة.

ثم انظر إلى أهل الحسب والدين فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم أعرف منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض. أقول هذا وأستخلف الله عليك».

عمَّر مروان بن الحكم بصفته حاكماً للشام ثم الشام ومصر حوالي تسعة أشهر، ثم خلفه بعهد منه ابنه عبد الملك الذي يراه الدارسون بحق مؤسس الدولة المروانية، أو المؤسس الثاني للدولة الأموية.

ويبدو أن عبد الملك لم يكن يرى في نفسه، إبان السنوات الأولى من عهده، أنه خليفة، بل فقط مجرد منافس لعبدالله بن الزبير، غير أن هذه الموازين أخذت تتغير لصالح عبد الملك، وأسفر الصراع في النهاية عن انتصار زعيم الأسرة الأموية ومقتل

(٥) استولى مروان على مصر في أوائل جمادى الأولى سنة ٦٥هـ وخرج منها في بداية رجب من نفس العام.
(٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد جـ١ ص ٤٩.

عبدالله بن الزبير في سنة ٧٣ هـ.

ويعتبر عام ٧٣ هـ شبيهاً بعام ٤١ هـ، أي عام الجماعة، في عام ٧٣ انتهى الانقسام الذي ساد العالم الإسلامي، ورسم تطوراته فترة تزيد على تسعة أعوام. ويبدو أنه بمقتل عبدالله بن الزبير اعتبر عبد الملك نفسه خليفة للمسلمين. وإذا دقق الباحث في التطورات التي انتهت بانفراد عبد الملك بن مروان بالخلافة يجد تشابهاً أو تقارباً كبيراً بينها وبين تلك التطورات التي انتهت بانفراد معاوية بن أبي سفيان بالخلافة في سنة ٤١ هـ.

٢ ـ افتتاحية عبد الملك:

في إطار الزاوية التي نحن بصدد دراستها يبدو أن عبد الملك كان يعمد إلى محاكاة أو تقليد معاوية في كثير من الأمور، فقد سجل التاريخ لعبد الملك افتتاحية ووصية أو مجموعة من الوصايا. وهذا أمر طبيعي، ولكن الذي يستلفت الانتباه أن عبد الملك على ما يبدو أراد أن يحاكي معاوية في كثير من الجزئيات ذات العلاقة بالافتتاحية. فقد وقت معاوية افتتاحيته بعد فترة من انفراده بالخلافة وكذلك فعل عبد الملك، وألقى معاوية خطبته الافتتاحية على المنبر في المسجد النبوي، وكذلك فعل عبد الملك، وجاء إلقاء معاوية لافتتاحيته عقب أدائه لفريضة الحج، والشيء نفسه حدث مع عبد الملك بن مروان.

ألقى عبد الملك خطبته الافتتاحية عقب موسم حج سنة ٧٥ هـ، وفيها قال بعد حمد الله والثناء عليه(٧):

«أما بعد فإنه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون من المال ويوكلون، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، ولست بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا الخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولا الخليفة المأفون ـ يعني يزيد بن معاوية.

(٧) ابن كثير جـ ٩ ص ٦٤.

أيها الناس إنا نحتمل منكم كل الغرمة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه، قرابته وابنه، قال برأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا، وإن الجامعة التي خلعها من عنقه عندي، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء».

وفيها يقول أيضاً[٨]:

«ألا وإني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، وإنكم تحفظوننا أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم، وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه».

ولكي نعرف الجو العام الذي ألقيت فيه هذه الخطبة يلزم أن نشير إلى أن عبد الملك تولى الأمر عقب وفاة أبيه مروان في رمضان سنة ٦٥ هـ، وكانت منطقة نفوذه آنذاك تشمل فقط الشام ومصر، على حين كان نفوذ عبدالله بن الزبير مبسوطاً على بقية أنحاء الدولة الإسلامية، على الحجاز واليمن والعراق وخراسان[٩]. ومع مرور الوقت أخذ ميزان القوى يتغير بالتدريج لصالح عبد الملك بن مروان، كما أخذ نفوذه يحل محل نفوذ عبدالله بن الزبير في البلدان التي كانت موالية للأخير، ومن أبرز الانتصارات التي حققها عبد الملك على حساب نفوذ عبدالله بن الزبير انتزاع العراق سنة ٧٢، والسيطرة على مكة وعبدالله بن الزبير في السنة التالية.

وهذا يعني أن الحجاز، بحاضرتيه مكة والمدينة، كان يشكل مركز المعارضة الأساسي للدولة الأموية ولخلافة عبد الملك بن مروان، وقد اندحرت معارضة الحجاز وانتصر عبد الملك عليها بقوة السلاح، وأصبح انفراده بالخلافة أمراً واقعاً، تماماً كما حدث بالنسبة لانفراد معاوية بالخلافة في سنة ٤١ هـ، ولم يعد أمام زعماء الحجاز إلا التسليم بالأمر الواقع والرضوخ لخلافة عبد الملك، والقبول باستمرار زعامة العالم الإسلامي في الأسرة

(٨) هذا النص منقول من ابن الأثير جـ٤ ص ٣٩١ - ٣٩٢.
(٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٣ ص ٣٦٤، ٣٧٣.

الأموية. أو بكون دمشق حاضرة الدولة الإسلامية.

هذا هو الجو العام الذي ألقيت فيه هذه الخطبة. وبالتالي فإن الوعيد والتهديد هما العنصران البارزان فيها. وفي إطار التفصيل يستطيع الباحث أن يقول إن هذه الافتتاحية تتكون من ثلاثة أقسام.

في القسم الأول أكد عبد الملك أن العلاج الوحيد للأمراض السياسية التي تصيب هذه الأمة وتسبب لها التمزق والانقسام ـ هذا العلاج لا يأتي إلا عن طريق القوة والسيف. وأنه قادر على استعمال السيف متى تطلب الأمر ذلك. وكأني به يريد أن يقول لأهل الحجاز:

«إنكم أكثر الناس معرفة بقوتي وسيفي. ويشهد بذلك الضحايا الكثيرون الذين ذهبوا وقوداً للصراع الطويل والدامي الذي دار بيني وبين عبدالله بن الزبير».

وقد أبرز عبد الملك أنه نمط جديد من الخلفاء. نمط يختلف تماماً عن ثلاثة من الخلفاء السابقين. عثمان ومعاوية ويزيد بن معاوية. وذلك لأن كل واحد من هؤلاء كانت تغلب عليه إحدى السمات السلبية والتي كان لها تأثيرها في تشجيع البعض. وبخاصة أهل الحجاز. على الثورة ورفع راية العصيان. فعثمان. رضي الله عنه. اتسم بالضعف والاستكانة. وتمثلت نقطة الضعف الخاصة بمعاوية في انتهاجه سياسة المداهنة والقبول بأنصاف الحلول. أما يزيد فإنه لم يكن يتحلى بشيء من التعقل والحكمة.

وإذا أخذنا بمنطق المخالفة فإن عبد الملك يريد أن يقول لأهل الحجاز وبصراحة إنه ليس كواحد من هؤلاء. بل هو خليفة قوي يتحلى بمضاء العزيمة والحسم في الأمور. وفوق كل هذا فإنه يعالج المشكلات والقضايا التي تواجه بتدبر وحكمة شأن أصحاب العقول الواعية والتجارب المثمرة.

ويمكن للباحث أن يتفق مع عبد الملك في اعتبار نفسه خليفة لا يعاني من أي من نقاط الضعف المشار إليها. ويمكن أيضاً أن يتفق معه فيما وصم به يزيد بن معاوية. وحتى

في صفة الضعف التي ألصقها بالخليفة عثمان إذا كان يحصر ذلك في السنوات الأخيرة من خلافته. ولكن ما لا يمكن للباحث أن يقبله هو انتقاد عبد الملك للسياسة التي كان يسير عليها معاوية، ووصفه إياها بالمداهنة للمناقشة. فلماذا لا تكون سياسة معاوية نوعاً من المرونة والرؤية العميقة والبعيدة في فهم مشكلات العصر والمجتمع الذي عاش فيه، ويمكن لكل هذه الجوانب أن تجمعها صفة واحدة كثيراً ما اتصف بها معاوية من قبل أناس أبعد ما يكونون عن محاباة معاوية. وها هو ذا عمر بن الخطاب ينسب إليه أنه قال عن معاوية[10].

«تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية؟!

ويقول عنه واحد من أكبر منافسية ومنتقديه هو عبدالله بن الزبير[11]:

«والله إن كنا لنفرقه فيتفارق لنا، وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه، وإن كنا لنخدعه، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه، فيتخادع لنا».

على أية حال، فإن عبد الملك في القسم الثاني من افتتاحيته بيَّن لمستمعيه التصرفات التي لا يمكن له أن يتسامح إزاءها وهي تتركز في أمر واحد فقط هي الثورة ضد دولته والانشقاق على خلافته، وقد عبر عن ذلك بقوله:

«إنا نحتمل منكم كل الغرمة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر».

وما عدا ذلك فهو في نظر عبد الملك من الأمور التي لا يأبه بها. وحول هذه الجزئية قدم عبد الملك لمستمعيه مثلاً حياً من مواقفه الصارمة في مواجهة كل من تسول له نفسه أن ينتقص من سلطان عبد الملك، والمثل هو عمرو بن سعيد بن العاص، أحد أركان الدولة المروانية، فقد أقدم عمرو في سنة ٧٠ هـ على خلع عبد الملك، فما كان من الأخير إلا أن قتله دون مراعاة لصلة القرابة أو لدوره الكبير في مساندة الدولة الأموية، وقد

(١٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٣ ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(١١) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات ص ٥١٦.

حفظ التاريخ لعبد الملك أنه قال بعد أن تخلص من عمرو[١٢]:

«لو أعلم أن تبقى وتصلح قرابتي لفديتك بدم النواظر. ولكنه قلما اجتمع فحلان في إبل إلا أخرج أحدهما صاحبه».

وفي القسم الثالث والأخير من الافتتاحية وجه عبد الملك لومه واستنكاره الشديدين إلى مستمعيه بسبب تناقضهم وتخبطهم بين القول والعمل وبين ما يطالبون الغير بفعله ولا يفعلونه هم. فمستمعوه يرددون دائماً أعمال المهاجرين الأولين ويتغنون بتلك الأيام الماضية، وهم أنفسهم بعيدون كل البعد عن الاقتداء بهم والسير على هداهم. ومستمعوه يحثون الغير على تقوى الله. ولا يلتزمون هم بالتقوى، وهنا يقترب عبد الملك من قوله تعالى:

«أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم».

وفي ختام الحديث عن افتتاحية عبد الملك يتضح لنا أن عبد الملك قد حاول الاقتداء بمعاوية في تحديد الوقت والمكان لإلقاء افتتاحيته كما أشرنا سلفاً، وذلك على ما يبدو لوجود تشابه كبير بين التطورات التي أدت بمعاوية إلى الانفراد بالخلافة، وبالتالي بداية تأسيس دولة الفرع السفياني، وتلك التطورات التي انتهت بعبد الملك إلى الانفراد بالخلافة ومن ثم بداية تأسيس دولة الفرع المرواني، بيد أنه يوجد بون شاسع بين محتويات افتتاحية معاوية وتلك التي ضمنها عبد الملك افتتاحيته. فافتتاحية معاوية تغلب عليها روح المصالحة بينه وبين أهل الحجاز، أما افتتاحية عبد الملك فتغلب عليها نغمة التحدي والمجابهة. وهذا هو الفرق الجوهري بين معاوية ومنهجه السياسي من ناحية، وعبد الملك وأسلوبه في الحكم والإدارة من ناحية ثانية.

٣ ـ وصايا عبد الملك:

سجل التاريخ لعبد الملك أنه قبيل وفاته تحدث بمجموعة من الأقوال تبدو للوهلة

(١٢) خليفة بن خياط جـ١ ص ٢٦٣.

الأولى وكأنها وصايا متعددة. على حين أن المتمعن فيها يرجح أنها وصية واحدة شاملة ضمت العديد من الوصايا الجزئية. وها هو ذا المسعودي[١٣] يحدثنا عن هذه الوصية فيقول: وقيل إن عبد الملك نظر إلى الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه فقال: «يا هذا أحنين الحمامة. إذا أنا مت فشمر واتزر. والبس جلد نمر. وضع سيفك على عاتقك. فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه. ومن سكت مات بدائه».

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا فقال:

«إن طويلك لقصير. وإن كثيرك لقليل وإن كنا فيك لفي غرور».

ثم أقبل على جميع ولده فقال:

«أوصيكم بتقوى الله فإنها عصمة باقية وجنة واقية. فالتقوى خير زاد. وأفضل في المعاد. وهي أحصن كهف.

وليعطف الكبير منكم على الصغير. وليعرف الصغير حق الكبير. مع سلامة الصدور. والأخذ بجميل الأمور. وإياكم والبغي والتحاسد فيهما هلك الملوك الماضون وذوو العز المكين.

يا بني أخوكم مسلمة نابكم الذي تفترون عنه. ومجنكم الذي تستجنون به. اصدروا عن رأيه. وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم هذا الأمر[١٤]. وكونوا أولاداً أبراراً وفي الحروب أحراراً وللمعروف مناراً».

«وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب؛ فإنهم أصون له وأشكر لما يؤتي إليهم منه.

(١٣) إلى جانب المسعودي حفظ لنا وصية عبد الملك العديد من المؤرخين من بينهم خليفة بن خياط (جـ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١) وابن أعثم الكوفي (جـ٧ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢)، وابن الأثير (جـ٤ ص ٥١٧ ـ ٥١٨) وابن خلدون (جـ٣ ص ١٢٧ ـ ١٢٨) وابن كثير (جـ ٩ ص ٦٧).

(١٤) نص هذه الجزئية لدى ابن أعثم كالتالي: «وانظروا ابني مسلمة حفظه الله إذا قدم من أرض الروم. فاعرفوا له حق الجهاد في سبيل الله. وكذلك فاعرفوا لأخي محمد بن مروان حقه وسنه. وأكرموا الحجاج بن يوسف فإنه وطأ لكم البلاد. وأذل لكم العباد. وعقد لكم القناطر وداس لكم رقاب العرب».

وتمغدوا ذنوب أهل الذنوب فإن استقالوا فأقيلوا وإن عادوا فانتقموا(١٥).

من النص السابق يتضح لنا أن وصية عبد الملك في أيامه الأخيرة تتكون، بالنظر إلى من وجهت إليهم، من جزء بن أساسيين، الجزء الأول موجه إلى ابنه وولي عهده الوليد، والجزء الثاني موجه إلى أولاده جميعاً.

والجزء الأول سياسي محض، وذلك لأن عبد الملك، على ما يبدو، كان يتخوف وقوع ثورات وحركات تمرد ضد ابنه الوليد، وخاصة من بعض الفئات التي كانت تناصب عبد الملك العداء، مثل الخوارج وغيرهم من أصحاب التطلعات السياسية. وفي مواجهة هذا الاحتمال كان عبد الملك حاسماً في وصيته لابنه وولي عهده. فقد أوصاه باستخدام القوة والعنف، بل وأقصى درجات القسوة مع كل من تسول له نفسه أن يرفع رأسه تحدياً للوليد:

«....... إذا أنامت فشمر واتزر والبس جلد نمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه».

وإذا وضعنا هذا الجزء من وصية عبد الملك إلى جانب افتتاحيته فإننا لا نجد اختلافاً يذكر بين المضمونين والموقفين، فعبد الملك الخليفة المباهي بانتصاره على عبدالله بن الزبير هو نفسه عبد الملك الرجل المتهالك والذي يقف على حافة القبر، مضمون كلامه من على منبر المسجد النبوي في سنة ٧٥ هـ. ذات المضمون الذي قدمته هذه الفقرة من الوصية في سنة ٨٦ هـ. عبد الملك في كلتا الحالتين يدرك إدراكاً تاماً أن القوة هي الوسيلة الوحيدة لتصفية الفئات المناهضة، وذلك من خلال تجاربه الناجحة في مواجهة عبدالله بن الزبير من ناحية، والخوارج من ناحية ثانية، وهو لذلك يوصي ابنه بانتهاج السياسة ذاتها، سياسة البطش والقوة مع الأعداء والمناهضين.

والجزء الثاني من الوصية يتكون من قسمين، القسم الأول ديني خالص، والقسم

(١٥) هذه الفقرة من الوصية منقولة عن ابن الأثير جـ٤ ص ٥١٨.

الثاني سياسي بواجهة اجتماعية. في القسم الديني ذم عبد الملك الدنيا ثم أوصى أولاده بتقوى الله، وهذا القسم من الوصية يتفق تماماً مع الظرف الذي كان يواجهه عبد الملك في تلك اللحظات، وهو ظرف الموت.

وفي القسم الثاني برزت قضية المستقبل المجهول والذي كان عبد الملك يتخوف منه على أولاده، من حيث علاقاتهم فيما بينهم وعلاقاتهم مع كبار رجال الدولة، وانعكاس هذه العلاقات على الدولة المروانية، فحول العلاقات داخل أسرة عبد الملك أوصى الرجل أولاده بالتضامن والتآلف والمحبة.

« ... وليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير».

وتبدو وصية عبد الملك في هذه الناحية ذات طبيعة اجتماعية، ولكنها في الحقيقة وصية سياسية من الدرجة الأولى. فعبد الملك كان يدرك جيداً أنه إذا ساءت العلاقات بين أولاده وتسرب الانقسام إليهم فإن ذلك سيؤدي إلى ضعفهم وبالتالي سقوط دولتهم. وهذا ما أكدته التطورات بالفعل فإنه بعد وفاة ابنه هشام في سنة ١٢٤ هـ ساءت العلاقات بين ذرية عبد الملك وانقسموا على أنفسهم. وكان هذا الانقسام عاملاً أساسياً في ضعف الدولة وبالتالي سقوطها.

وعن العلاقات بين أولاد عبد الملك من ناحية وكبار رجال الدولة من ناحية ثانية أوصى عبد الملك بنيه باثنين أو قل بثلاثة، هم مسلمة بن عبد الملك ومحمد بن مروان والحجاج بن يوسف. وقد خص عبد الملك ابنه مسلمة بالذكر هنا إضافة إلى أنه متضمن في الجزء السابق من الوصية لأن مسلمة كان بعيداً عن دمشق في ذلك الوقت، كما أن مسلمة، كما يبدو من تاريخه، كان قد شق لنفسه طريقاً انفرد به عن الباقين من إخوته، ذلك هو طريق الجهاد في سبيل الله، وخاصة ضد دولة الروم. وأيضاً فإن مسلمة كان يتحلى بكل صفات الزعامة، وعنه يقول الذهبي[١٦]:

«كان أولى بالخلافة من سائر إخوته».

(١٦) سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ٢٤١.

ولذلك كانت وصية عبد الملك لبنيه أن يصدروا عن رأيه في رواية، وأن يعرفوا له حق الجهاد في سبيل الله في رواية ثانية(١٧).

وأوصى عبد الملك بنيه بعمهم محمد بن مروان أن يعرفوا له حقه وسنه، وذلك لأن عبد الملك كان يدرك بحسه السياسي الدقة البالغة التي تتحرك في إطارها العلاقات عادة بين جيلين من أسرة واحدة، جيل له حق السبق الزمني ولكن ضاعت منه القوة السياسية، وجيل ـ مع تأخره الزمني ـ يمسك بكل مقاليد الأمور، هذا مع ملاحظة أن عبد الملك قد وجه ولاية العهد في بنيه، وكان الأحرى بها من وجهة نظر محمد بن مروان أن تكون من نصيبه هو، لأنه صنو عبد الملك، وتربطه بمروان نفس الرابطة التي تصل بين مروان وعبد الملك.

أما ثالث الثلاثة فهو الحجاج بن يوسف، وقد أوصى عبد الملك بنيه بإكرامه، وذلك لدوره الكبير في تثبيت أركان دولة عبد الملك، ، ولولا هذا الدور لكان من المرجح حدوث تغيير في مسار هذه الدولة.

ووصية عبد الملك بنيه بهؤلاء الثلاثة تتداخل فيها الصبغة الاجتماعية مع الصبغة السياسية، ولعل الأخيرة هي التي كانت تشغل بال عبد الملك، فهو لم يكن يريد لأبنائه أن يتهموا بالعقوق أو نكران الجميل كي لا تجد بعض الفئات الحانقة نقطة للطعن على الدولة والتأليب ضدها.

وختم عبد الملك وصيته بأن خص أولاده على أن يتعاملوا مع ذوي الأحساب بما يتفق وأحسابهم، وأن يفتحوا الأبواب أمام الذين يذنبوا في حق الدولة فإن أقلعوا قبل منهم، وإن عادوا إلى غيهم وفسادهم كان الانتقام جزاءهم.

وجلي أن وصايا عبد الملك لبنيه تلتقي مع وصايا معاوية لابنه يزيد في جانبين عامين، الجانب الديني فكلاهما أوصى بالتقوى والحث على مراقبة الله تعالى، وهذا أمر طبيعي من صحابي كمعاوية وتابعي كعبد الملك، وكلاهما يشغل منصب الخلافة، أرفع

(١٧) الرواية الأولى هي رواية المسعودي، والثانية رواية ابن أعثم الكوفي.

المناصب الإسلامية وأكثرها مهابة. والجانب الثاني هو الخاص بالتعامل مع أهل الشرف أو ذوي الأحساب، فكلاهما أوصى بأن يكون التعامل مع هذا الصنف من الناس منطلقاً من تقدير مكانتهم في المجتمع، وذلك لأن هذا المستوى من التعامل ستكون له نتائجه الإيجابية بالنسبة لكل من يزيد وأولاد عبد الملك.

وما عدا هذين الجانبين فإن وصايا كل من الرجلين انفردت بجزئيات خاصة، أملتها الظروف التي كانت تمر بها الدولة وقت وفاة كل منهما، والمشكلات التي كانت تلوح في الأفق في سنة ٦١ وسنة ٨٦هـ.

وأخيراً فإن وصايا كل من الرجلين تلتقي في الدلالة على شخصية كل منهما، وقد سبق لنا أن أبرزنا العديد من الرؤى المستقبلية لمعاوية من خلال وصاياه. والتي أكدت عبقريته السياسية أو صفة الدهاء، وهو الأمر الذي اتفق عليه معاصرو معاوية من محايدين ومناهضين.

وعبد الملك هو الآخر كان عبقرية سياسية كبيرة، تشهد بذلك وصيته بجزئياتها المختلفة، ومن الناحية العملية فإن إنجازات عبد الملك على مدى عهده الذي تجاوز عشرين سنة تؤكد أنه رجل من بناة الدول وصناع التاريخ، أو كما يقول عنه الذهبي (١٨):

«كان من رجال الدهر ودهاة الرجال».

٤ ـ افتتاحية الوليد:

توفي عبد الملك في منتصف شوال سنة ٨٦هـ، وحل محله في الخلافة ابنه وولي عهده الوليد، وكان آنذاك قد ناهز الرابعة والثلاثين، وقد سجل له التاريخ أنه استهل عهده بافتتاحية عدد فيها أهم مناقب أبيه عبد الملك، ثم أشار بإيجاز شديد إلى السياسة التي سيسير عليها، وهي سياسة العنف ضد الخارجين على الطاعة والمنشقين على الجماعة.

(١٨) سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ٢٤٩.

قال الوليد في افتتاحيته بعد أن حمد الله وأثنى عليه[١٩]:

«أيها الناس، إنه لا مقدم لما أخر الله، ولا مؤخر لما قدم الله، وقد كان من مضاء الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت، وقد صار إلى منازل الأبرار وليّ هذه الأمة بالذي يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله، فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً.

أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد.

أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه».

وهذه الافتتاحية تتكون من ثلاثة أقسام، في القسم الأول تكلم الوليد عن حدث الموت الذي نزل بأبيه، ثم قدم عدداً من مناقبه وأعماله، ويبدو على هذا القسم قدر من الإسهاب، وهو إسهاب مقبول تطلبه المقام.

والذي يسترعي الانتباه في هذا القسم العبارة الختامية له، وأعني بها قول الوليد عن أبيه: فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً، وهذه العبارة الموجزة تقدم صورة دقيقة للخليفة عبد الملك، فهو لم يكن بالخليفة العاجز على المستويين الداخلي والخراجي، فقد جابه الحركات المناوئة بكل مقدرة وكفاءة، وكان النجاح حليفه في كل المجابهات التي خاضها الدولة. وعبد الملك أيضاً لم يكن بالخليفة المفرط في أي من حقوق الدولة الإسلامية سواء فيما يتصل بحقوق السيادة أو نطاق النفوذ الذي امتدت إليه الدولة في كثير من مناطق الحدود، ويكفي أن نشير إلى دوره في استقلال العملة الإسلامية وتعريب الدواوين، ويكفي أن نعرف أن حركة التوسع الكبير الذي شهدته الدولة الأموية في أكثر من ناحية إبان عهد ابنه الوليد قد تمت بفضل قوة الدفع التي توفرت للدولة في عهد عبد الملك.

---

(١٩) الطبري جـ٨ ص ١٤. وقد أورد افتتاحية الوليد كل من اليعقوبي (جـ٢ ص ٢٨٣، والمسعودي (مروج الذهب جـ٣ ص ١٧٠، وابن الأثير جـ٤ ص ٥٢٢ وابن خلدون جـ٣ ص ١٢٩.

وفي القسم الثاني دعا الوليد مستمعيه إلى الطاعة والتمسك بالجماعة، وهذه دعوة سياسية خالصة، هدف من ورائها الوليد إلى توحيد الكلمة تحت رايته كما كان عليه الحال تحت راية أبيه عبد الملك من قبل، وأبرز الوليد الفرق بين منطلق الجماعة ومنطلق الفرد، فطاعة أولى الأمر ولزوم الجماعة من القيم التي حث عليها الإسلام، أما منطلق الفرد أو الخروج على الجماعة فهو شيطان، وكان الشيطان للانسان عدواً مبيناً، والفرق بين المنطلقين فرق ديني أراد به الوليد خدمة غاياته السياسية.

وبعد الدعوة إلى الجماعة، وفي القسم الثالث، حذر الوليد مستمعيه تحذيراً شديداً من الإقدام على أية محاولة تستهدف الخروج على الدولة أو التمرد ضد خلافته:

«..... من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه».

وهذا الجزء من افتتاحية الوليد تكرار للجزء الأول من وصية عبد الملك، وهو الجزء الذي وجه فيه حديثه للوليد قائلاً له:

«فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه».

وهذا يعني أن وصية عبد الملك وجدت من الوليد استجابة وتفهماً كاملين.

وإذا قارنا بين افتتاحية يزيد بن معاوية وافتتاحية الوليد بن عبد الملك فإنا نجد خطاً واضحاً يميز بينهما، ويجعل لكل من الافتتاحيتين طبيعتها الخاصة، فافتتاحية يزيد تفيد أنه لن يسير على سياسة أبيه، وهذا واضح من قوله:

«إن أبي كان يغزيكم البحر ولست حاملكم في البحر، وإنه كان يشتيكم بأرض الروم، فلست أشتي المسلمين في أرض العدو، وكان يخرج العطاء أثلاثاً وإني أجمعه لكم».

أما افتتاحية الوليد فإنها تؤكد عزمه على انتهاج السياسة التي كان يسير عليها أبوه، بل تكاد تنطق بأن سياسة الوليد ليست سوى استمرار لسياسة أبيه عبد الملك، كما يفهم الباحث من ترديد الوليد في افتتاحيته لنص العبارات التي جاءت في وصية عبد الملك.

وهذا الفرق الذي برز من الافتتاحية تدعمه التطورات التاريخية. فأعمال يزيد ومعالجاته للقضايا التي واجهته تؤكد أنه شخص مختلف في سياسته عن سياسة معاوية، إضافة إلى أنها تجزم بأن الابن لم يأخذ بما أوصاه به أبوه ولم يلتزم بشيء من توجيهاته.

وعلى الجانب الآخر نجد أن الوليد قد سار بالدولة الأموية في نفس المسار الذي رسمه لها أبوه، وأنه بدأ من حيث انتهى عبد الملك، وبالتالي كانت إنجازاته الرائعة في الميدانين الداخلي والخارجي، ويكفي أن نعرف أن جيوش الوليد قد وصلت في فتوحاتها إلى أواسط آسيا في الشمال الشرقي، وإلى قلب القارة الهندية في الجنوب الشرقي، وإلى مداخل جبال البرانس في القارة الأوربية، كل هذا تحقق في عهد الوليد على الرغم من أن خلافته تجاوزت تسعة أعوام بعدة شهور.

٥ ـ افتتاحية سليمان ووصيته :

توفي الوليد بن عبد الملك يوم السبت منتصف ربيع الأول، وقيل الآخر، سنة ٩٦ هـ، بعد أن أمضى في الخلافة حوالي تسعة أعوام وخمسة شهور، وكان عند وفاته في حوالي الخمسين من العمر[٢٠]. وتولى الخلافة بعده بعهد من عبد الملك أخوه سليمان، وقد افتتح الخليفة الجديد عهده بأن صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على رسوله، ثم قال[٢١]:

«الحمد لله الذي ما شاء صنع، وما شاء أعطى، وما شاء منع، وما شاء رفع، وما شاء وضع.

أيها الناس، إن الدنيا دار غرور وباطل وزينة وتقلب بأهلها، تضحك باكيها وتبكي ضاحكها، وتخيف آمنها وتؤمن خائفها، وتثري فقيرها وتفقر مثريها، ميالة بأهلها.

عباد الله، اتخذوا كتاب الله إماماً وارضوا به حكماً، واجعلوه لكم هادياً ودليلاً، فإنه ناسخ ما قبله ولا ينسخه ما بعده، واعلموا عباد الله أنه ينفي عنكم كيد الشيطان

(٢٠) خليفة بن خياط جـ١ ص ٣١٣ ـ ٣١٤. الذهبي. سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ٣٤٨.
(٢١) المسعودي. مروج الذهب جـ٣ ص ١٧٤. وتوجد هذه الافتتاحية أيضاً لدى ابن كثير جـ٩ ص ١٧٩.

ومطامعه، كما يجلو ضوء الشمس الصبح إذا أسفر وإدبار الليل إذا عسعس».

وتغلب الصبغة الدينية على هذه الافتتاحية لدرجة أنها لم تترك مجالاً لأمر آخر، كما في الافتتاحيات السابقة، وسيطرة الصبغة الدينية على هذه الخطبة تنسجم مع الجو العام الذي خلفته وفاة الوليد، كما أنها تبرز أيضاً النزعة الدينية التي كان يتحلى بها سليمان. وإن دلت هذه الافتتاحية على شيء فإنما تدل على نية الخليفة سليمان في أن يتجه في قيادته للدولة الأموية اتجاهاً دينياً بدرجة أكبر مما كان عليه الحال في عهد أخيه الوليد.

وللحقيقة فإن النزعة الدينية لدى سليمان لم تقف عند مجرد النوايا، بل إنها برزت عملياً في عهده القصير، فقد سجل له التاريخ أنه في بداية عهده كتب إلى عماله[٢٢]:

«إن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها بوقتها».

كما أنه ألغى المظالم التي تخلفت من العهود السابقة[٢٣]، كما أنه كان أكثر أولاد عبد الملك كراهية لسفك الدماء.

° ° °

وقد برزت النزعة الدينية لدى سليمان كأقوى ما يكون في الوصية التي تركها عند وفاته، فقد سجل التاريخ له أنه ترك وصية مكتوبة[٢٤]، وهي وصية مطولة ومما جاء فيها:

«...... وإن ولي عهدي فيكم، وصاحب أمري بعد موتي في جندي ورعيتي وخاصتي وعامتي، وكل من استخلفني الله عليه واسترعاني النظر فيه الرجل الصالح عمر ابن عبد العزيز، ابن عمي، لما بلوت من باطن أمره وظاهره، ورجوت الله بذلك،

---

(٢٢) الذهبي. سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١١٢. وانظر أيضاً السيوطي. تاريخ الخلفاء ص ٢٢٥.

(٢٣) ابن الأثير جـ٥ ص ٣٧. الذهبي. سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١٢٥.

(٢٤) ابن قتيبة. الإمامة والسياسة جـ٢ ص ٨٠. القلقشندي. صبح الأعشى جـ٩ ص ٣٦٠.

ويوجد لدى ابن خلدون (جـ٣ ص ٧٤) وصية موجزة نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبدالله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز. إني قد وليتك الخلافة بعدي. ومن بعدك يزيد بن عبد الملك. فاسمعوا وأطيعوا. واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم».

وأردت رضاه ورحمته إن شاء الله، ثم ليزيد بن عبد الملك من بعده، فإني ما رأيت منه إلا خيراً، ولا اطلعت له على مكروه.

وصغار ولدي وكبارهم إلى عمر، إذ رجوت ألا يألوهم رشداً وصلاحاً والله خليفتي عليهم وعلى جماعة المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله.

ومن أبى عهدي هذا وخالف أمري فالسيف، ورجوت ألا يخالفه أحد، ومن خالفه فهو ضال مضل يستعتب فإن أعتب وإلا فالسيف والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله القديم الإحسان».

وجلي من هذه الوصية أن سليمان قد ركز على الخطر الذي يمكن أن يحيط بالدولة الأموية نتيجة لشعور أبناء عبد الملك بالإحباط بسبب ابتعاد منصب الخلافة عنهم إلى ابن عمهم عمر بن عبد العزيز، ومن ثم كان حثه لكبار أهل بيته، وخاصة المتطلعين إلى الخلافة بالسمع والطاعة والتقوى، وهذه قيم دينية تشكل قاسماً مشتركاً في جميع وصايا الخلفاء السابقين، وقد أضاف سليمان إلى ذلك وصيته إياهم بعدم الاختلاف؛ كيلا تتفرق كلمتهم فيضعفون ويطمع فيهم الأعداء. وهذه وصايا سياسية استهدف من ورائها سليمان الحفاظ على الوحدة بين أبناء الأسرة المروانية، وهي الوحدة التي استهدفها عبد الملك أيضاً في وصيته.

والتعليق الختامي على سليمان يمكن إجماله في القول: بأن هذا الخليفة يقدم نموذجاً طيباً للالتقاء التام بين البداية والنهاية، وأيضاً للتجانس الكامل بين الأقوال والأعمال، فسليمان في افتتاحيته هو سليمان في وصيته، مجموعة من القيم الدينية البعيدة عن الرياء والمخادعة، وسليمان في حكمه وإدارته هو سليمان كما عبرت عنه كلمات افتتاحيته وأيضاً مضمون وصيته.

٦ ـ افتتاحيتا عمر بن عبد العزيز:

في صفر سنة ٩٩ هـ توفي سليمان بن عبد الملك بعد خلافة استمرت حوالي أربعة

وثلاثين شهراً، وخلفه بعهد منه ابن عمه عمر بن عبد العزيز. وقد سجلت المصادر التاريخية اقتباسات متنوعة كل منها على اعتبار أنها خطبته الافتتاحية، الأمر الذي يعطي الانطباع بأن عمر قد ألقى العديد من الخطب في بداية عهده، ويمكن أن يفسر هذا التعدد بأن عمر افتتح عهده بخطبة طويلة، واختار كل مؤرخ من هذه الخطبة القسم الذي أعجبه أكثر من غيره، وقدمه على أساس أنه خطبة عمر الافتتاحية.

ويميل الباحث إلى تفسير آخر، هو أن عمر ألقى خطبتين كل منهما تعتبر افتتاحية، الخطبة الأولى ألقاها عقب البيعة الخاصة، وهي البيعة التي تمت مباشرة عقب قراءة وصية سليمان، وهي الوصية التي اتضح منها أنه عهد بالخلافة من بعده لعمر بن عبد العزيز، وكان المبايعون في هذه البيعة الخاصة هم كبار رجال البيت المرواني وكبار المسئولين في قصر الخلافة، وهذا ما يمكن فهمه من السياق الذي ذكره الذهبي في تقديمه لإحدى اقتباساته[٢٥]. ثم بعد ذلك بويع عمر بيعة عامة في المسجد من قبل عامة الناس في العاصمة الأموية دمشق، وعقب هذه البيعة ألقى عمر خطبته الثانية، والتي تعتبر أيضاً افتتاحية، والفارق الزمني بين الافتتاحيتين على الأرجح يوم أو بعض يوم.

ومهما يكن من أمر، فقد سجل التاريخ لعمر بن عبد العزيز أنه ألقى خطبة افتتاحية عقب البيعة الخاصة، وقد قال في هذه الخطبة بعد حمد الله والثناء عليه[٢٦]:

«أيها الناس إني لست بفارض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال».

ومما قاله عمر بن عبد العزيز في افتتاحيته هذه[٢٧]:

«إن الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص، ولكن الإمام هو العاصي، ألا لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق».

---

(٢٥) سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١٢٦.

(٢٦) المصدر السابق. وتوجد هذه الفقرة لدى المسعودي (مروج الذهب جـ٣ ص ١٨٥) مع شيء من الحذف والإضافة. ويوجد هذا النص عند ابن كثير جـ٩ ص ١٩٩).

(٢٧) المسعودي. مروج الذهب جـ٣ ص ١٨٥.

من النظر في هذه الافتتاحية يتضح لنا أن عمر بن عبد العزيز قد ركز الحديث فيها على ثلاثة مبادئ أساسية تساعد في تشكيل الإطار العام للأسلوب الذي سيدير به الدولة الإسلامية.

المبدأ الأول وهو ما أكده عمر من أنه ليس مشرعاً، وأنه مجرد منفذ، وقد عبر عمر عن هذا المبدأ بقوله:

«إني لست بفارض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع».

وإثارة هذا المبدأ يعني أن عمر بن عبد العزيز كان يدرك جيداً أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يحتويان على كل القيم والأسس والتنظيمات العامة التي تتطلبها الدولة الإسلامية في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

وهذا المبدأ من المبادئ الإسلامية الأصيلة التي ترسخت في عصر الرسالة وعهود الراشدين، ولكنه كاد ينسى نتيجة لانصراف أسلافه إلى أمور الدنيا بعيداً عن الالتزام بالمبادئ والتعاليم الإسلامية.

والمبدأ الثاني هو ما يراه عمر من حق أبناء بقية الأمصار أو الأقاليم الإسلامية في إبداء رأيهم فيه كخليفة قبولاً أو رفضاً، ويترتب على هذا المبدأ تقرير أن الخليفة الحق هو الذي تحظى خلافته بقبول جميع أبناء الأمصار الإسلامية، أو القسم الأكبر منهم، وليس المقصود هنا عامة الناس، بل أصحاب الحل والعقد، وهم أولئك الذين لا تعبر آراؤهم عن وجهات نظرهم هم فحسب، بل أيضاً تعكس رغبات ومواقف الذين يتبعونهم ويثقون فيهم.

وكأني بعمر بن عبد العزيز هنا يريد أن يشير من طرف خفي إلى المقارنة بين الخلفاء الراشدين من ناحية، وخلفاء الدولة الأموية من ناحية ثانية، فخلافة كل من الراشدين، أو ثلاثة منهم، كانت محل إجماع من المسلمين، وذلك على عكس ما كان عليه الحال مع خلفاء الدولة الأموية إذ لم تحظ خلافة أي منهم بمثل هذا الإجماع، ابتداء من معاوية وحتى عبد الملك وولديه الوليد وسليمان.

وسر الإجماع على الراشدين يكمن في التزامهم الشديد بالقيم الإسلامية، وعدم انحراف أي منهم عن تعاليم الدين الإسلامي، أما الخلفاء الأمويون فقد ابتعدوا عن الخط الذي رسمه الراشدون، مما يجعل البون بين الصورتين كبيراً، وهذا البون الكبير هو ما عبر عنه عمر بن عبد العزيز في تعليقه على عبارة قالها هشام له قبل أن يبدأ خطبته الافتتاحية، وعبارة هشام قوله أثناء مبايعته لعمر: إنا لله وإنا إليه راجعون. أما تعليق عمر فهو قوله:

«نعم إنا لله حين صار يلي هذه الأمة أنا وأنت»(٢٨).

وفي المبدأ الثالث يقرر عمر بن عبد العزيز مبدأ المشاركة في المساءلة والمسئولية بين الإمام وأفراد الرعية، فالإمام الذي تجب طاعته هو الإمام العادل، أما الإمام الظالم فلا تحق طاعته على أحد، بمعنى أن مسئولية التمرد ضد الإمام الظالم لا تقع على عاتق الشخص المتمرد، بل على الإمام الظالم الذي يخضع للمساءلة والمحاسبة شأنه في ذلك شأن أفراد الرعية. وهذا المبدأ توضيح للنظرية الإسلامية القائلة بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

هذه هي المبادئ التي تضمنتها الافتتاحية التي ألقاها عمر على الأرجح عقب البيعة الخاصة، أما الافتتاحية التي ألقاها عقب البيعة العامة فقد قال فيها، كما يذكر ابن الأثير(٢٩):

«أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا، يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن أحداً، ولا يعترض فيما لا يعنيه».

والمتأمل في هذه الافتتاحية يتضح له أن عمر بن عبد العزيز أراد بها أن تكون بداية صفحة جديدة أو تطور أساسي في تاريخ الدولة الأموية، وخاصة في الأسلوب الذي

---

(٢٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١٢٦.

(٢٩) الكامل في التاريخ جـ٥ ص ٦٣، وانظر أيضاً ابن كثير، البداية والنهاية جـ٩ ص ١٩٨.

ستدار به الدولة والرجال الذين سيتاح لهم أن يتعاونوا مع الخليفة في هذه المهمة، وذلك من خلال الضوابط الخمسة التي عددها عمر في هذه الافتتاحية.

الضابط الأول، أن يجعل الرجل من نفسه واسطة خير ومساعداً للضعفاء، ومعيناً في إيصال الحق لذويه الذين قد تقف بهم قدراتهم المحدودة دون الوصول إلى باب الخليفة لرفع ظلاماتهم.

الضابط الثاني، أن يبذل الرجل قصاراه في إعانة الخليفة على فعل الخير، ومؤازرته في الوقوف إلى جانب الحق والمعروف.

الضابط الثالث، أن يتحلى الرجل بالقدرة على اكتشاف ميادين الخير، وتوجيه اهتمام الخليفة إليها.

الضابط الرابع، ألا يكون الرجل جليس سوء، كل همه اغتياب الآخرين والنيل منهم والحط من شأنهم ظاناً أنه بذلك يسلك طريق التقرب إلى قلب الخليفة وعقله.

الضابط الخامس، أن يبتعد عن التدخل في الأمور التي لا تعنيه.

وكان عمر بن عبد العزيز حاسماً في جعله هذه الضوابط مجتمعة أساساً في انتقاء الرجال الذين سيتاح لهم أن يتعاونوا معه، وخاصة أولئك الذين كانوا سيشكلون ما يمكن أن نسميه ديوان الخلافة الأموية.

وهذه الضوابط تعتبر في الحقيقة خطوة كبيرة على طريق إصلاح جهاز الحكم في الخلافة الأموية، وهو الجهاز الذي عانى كثيراً من انحرافات المقربين إلى الخليفة في العهود السابقة. ومن هنا تتضح قيمة هذه الخطوة الإصلاحية، واعتبارها تطوراً كبيراً في أسلوب الحكم في الدولة الأموية.

وليس هذا غريباً على عمر بن عبد العزيز فقد سجل له التاريخ أنه حينما قدم المدينة والياً[٣٠] دعا بعشرة من مواطنيها، كل منهم مشهود له بالخير والصلاح وحدثهم

(٣٠) أسند الوليد بن عبد الملك ولاية المدينة إلى عمر بن عبد العزيز من آخر سنة ٨٦هـ إلى سنة ٩٣هـ. انظر تاريخ خليفة بن خياط جـ١ ص ٣١٥.

قائلاً[٣١]:

«إني دعوتكم لأمر تؤجرون فيه، ونكون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم، أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل ظلامه، فأحرج بالله على من بلغه ذلك إلا أبلغني».

ويبدو أن الرجل أراد أن يجعل من إدارته للدولة الأموية صورة مكبرة ومنقحة لإدارته السابقة للمدينة المنورة، وبإجماع المؤرخين فإن فترة ولايته على المدينة كانت أفضل فترة عاشتها في ظل الدولة الأموية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مبادرة عمر بن عبد العزيز في أول عهده إلى وضع هذه الضوابط الصارمة للرجال الذين كانوا سيساعدونه في تحمل المسئولية جاءت خطوة موفقة للغاية، وذلك لأن الكثير من الانحرافات والتجاوزات التي وقعت فيها الدولة الأموية أو الخلفاء الأمويون تمت بإيعاز من هذا أو ذاك من المقربين إلى الخليفة.

ومن الناحية العملية، فإن التاريخ سجل لعمر بن عبد العزيز أنه قد وضع المبادئ والضوابط التي اشتملت عليها افتتاحياته موضع التنفيذ، بادئاً بنفسه وأهل بيته، فأبناء الأسرة الأموية. وقد انعكست الشخصية المتميزة لعمر بن عبد العزيز وبقوة على كل مظاهر الحياة في الدولة الأموية، فلا غرو أن تحدث عنه معظم المؤرخين بوصفه خامس الراشدين.

٧ ـ وصيتا عمر بن عبد العزيز:

حفظ التاريخ لعمر بن عبد العزيز وصيتين، الأولى وصية خاصة وجهها عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك، ولي عهده والخليفة من بعده، والثانية وصية عامة خاطب فيها المسلمين عامة، وقد اتخذت الوصية الخاصة شكل رسالة وجهها عمر إلى ولي عهده يزيد، على حين اتخذت وصيته العامة شكل خطبة كانت آخر ما خاطب به عمر المسلمين عامة من على منبر الجامع الأموي بدمشق، والمصادر التي بين أيدينا لا تشير إلى

(٣١) الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١١٨.

الترتيب الزمني بين الوصيتين، ولكن من الممكن القول بأن الوصية الخاصة، والتي يبدو أنه كتبها وهو في مرضه الأخير، جاءت تالية للوصية العامة.

مهما يكن من أمر، ففي الوصية الخاصة قال عمر بن عبد العزيز[٣٢]:

«أما بعد، فإني كتبت إليك وأنا دنف من وجعي، وقد علمت أني مسئول عما وليت، يحاسبني عليك مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً ..... فإن يرض عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل، وإن سخط على فياويح نفسي إلام أصير؟ أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمن على برضوانه والجنة.

وعليك بتقوى الله، والرعية، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير والسلام».

أما الوصية العامة، أو آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز، فقد قال فيها بعد حمد الله والثناء عليه[٣٣]:

«أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى وحرم جنة عرضها السموات والأرض.

ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم الآخر وخافه، وباع فانيا بباق، ونافذا بما لا نفاذ له، وقليلاً بكثير، وخوفا بأمان، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيكون من بعدكم للباقين، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين. ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله لا يرجع، قد قضى نحبه حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وواجه التراب والحساب، فهو مرتهن بعمله

(٣٢) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٧٧. وتوجد وصية موجزة لدى كل من ابن الأثير (جـ٥ ص ٦٧) وابن خلدون جـ٣ ص ١٦٥).

(٣٣) ابن كثير جـ٩ ص ١٩٩.

غني عما ترك فقير لما قدم، فاتقوا الله قبل القضاء، وراقبوه قبل نزول الموت بكم».

وكما هو واضح فإن وصيتي عمر بن عبد العزيز تحملان صبغة دينية قوية، إذ أنهما تركزان على العلاقة بين الإنسان وربه، والثواب والعقاب، وهذه الصبغة تتفق تمام الاتفاق مع شخصية عمر بن عبد العزيز، وهي الشخصية التي برزت بوضوح أيضاً في افتتاحيتيه اللتين تحدثنا عنهما سلفاً.

٨ ـ نصوص أخيرة :

توفي عمر بن عبد العزيز في شهر رجب من السنة الأولى بعد المائة، وعلى مدى الفترة التالية حتى سقوط الدولة الأموية في سنة ١٣٢هـ يجد الباحث قلة ظاهرة في الافتتاحيات والوصايا مع كثرة الرجال الذين تعاقبوا على منصب الخلافة[٣٤]، وذلك على عكس الفترة السابقة.

وعلى مدى الفترة المشار إليها أمدتنا المصادر التي رجعت إليها بنصوص ثلاثة، أولها كتاب بعث به يزيد بن عبد الملك، أول عهده بالخلافة، إلى العمال على الأقاليم، وثانيها كلمات وجهها هشام في مرضه الأخير إلى أولاده، وثالثها خطبة قالها يزيد بن الوليد عقب قتل الخليفة الوليد بن يزيد في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة.

ومن حيث انطباق التسمية، افتتاحية أو وصية، بالنسبة لهذه النصوص الثلاثة، فإنه يمكن القول:بأن التاريخ لم يسجل ليزيد بن عبد الملك أنه ألقى خطبة، عامة أو خاصة، افتتح بها عهده، غير أن الكتاب الذي بعث به أوائل عهده إلى العمال على الأمصار يمكن اعتباره افتتاحية، لأنه حدد سياسة يزيد في قضية بالغة الأهمية بالنسبة للدولة الأموية، تلك هي قضية الخراج، أهم الموارد المالية، وسياسة يزيد في هذه الناحية تخالف تمام المخالفة السياسية التي سار عليها سلفه عمر بن عبد العزيز.

(٣٤) تعاقب على منصب الخلافة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز خمسة رجال هم يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥) وهشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥) والوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ـ ١٢٦) ويزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦) ومروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢) ويمكن أن يضاف إليهم سادس هو ابراهيم بن الوليد ابن عبد الملك الذي تولى الخلافة لفترة قصيرة قبل مروان بن محمد.

أما الكلمات التي وجهها هشام إلى أولاده فإنها لا تحمل معنى الوصية، إنها تقرير للواقع الذي كان يعيشه هشام آنذاك، فهو رجل يعيش الساعات الأخيرة من عمره، الساعات التي تقف به على عتبة الموت. هذا على حين أن النص الثالث، وهو خطبة يزيد ابن الوليد، تنطبق عليه تسمية الافتتاحية تمام الانطباق، وذلك لأنه بهذه الخطبة افتتح عهده وحدد سياسته.

° ° °

مهما يكن من أمر، فقد ذكر ابن عبد ربه[٣٥] عن يزيد بن عبد الملك أنه في بداية عهده بعث إلى عمال عمر بن عبد العزيز بكتاب قال فيه:

«أما بعد، فإن عمر كان مغروراً، غررتموه أنتم وأصحابكم، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة، فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى (أي الوضع السابق) أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا والسلام».

وليس لنا من تعليق على هذا الكتاب إلا القول بأنه يتحدث عن جانب من الجوانب العديدة التي انحرف بها يزيد عن سياسة سلفه عمر بن عبد العزيز، الذي يعتبر بكل المقاييس خامس الراشدين.

وينتقل بنا الزمن حوالي ربع قرن، وعلى وجه التحديد إلى شهر ربيع الثاني من سنة خمس وعشرين بعد المائة، في التاريخ المذكور كان هشام بن عبد الملك الذي أمضى في الخلافة قرابة عشرين سنة ـ كان هذا الخليفة يعاني سكرات الموت في مرضه الأخير، وقد سجل له التاريخ أنه قال آنذاك موجهاً حديثه إلى أولاده الباكين حول سريره[٣٦]:

«جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم له ما

(٣٥) العقد الفريد جـ٢ ص ٢٨١.
(٣٦) ابن كثير جـ٩ ص ٣٥٤.

كسب، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له».

بعد وفاة هشام شهدت الدولة الأموية أحداثاً خطيرة كان أبرزها الانقسام الذي منيت به الأسرة المروانية، ونتيجة لهذا الانقسام اندلعت ثورة ضد الوليد بن يزيد قادها يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وقد نجح الثائرون في قتل الخليفة، وذلك في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. بعد ذلك خطب يزيد الناس فقال بعد حمد الله والثناء عليه(٣٧):

«أما بعد، أيها الناس إني والله ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء نفسي، ولا تزكية عملي، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضباً لله ودينه، وداعياً إلى كتابه وسنة نبيه حين درست معالم الهدى، وطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد، المستحل الحرمة، والراكب البدعة، والمغير السنة، فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم على كثرة من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم، وأشفقت أن يدعو كثيراً من الناس إلى ما هو عليه، فيجيبه من أجابه منكم، فاستخرت الله في أمري، وسألته ألا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهلي وأهل ولايتي، وهو ابن عمي في نسبي وكفيِّي في حسبي، فأراح الله منه العباد وطهر منه البلاد، ولاية من الله وعوناً بلا حول منا ولا قوة، ولكن بحول الله وقوته وولايته وعونه.

أيها الناس، إن لكم عندي إن وليت أموركم ألا أضع لبنة على لبنة، ولا حجراً على حجر، ولا أنقل مالاً من بلد حتى أسد ثغرة وأقسم بين مسالحه ما يقوون به، فإن فضل فضل رددته إلى البلد الذي يليه وهو أحوج إليه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيها سواء، ولا أجمر بعوثكم فتفتنتوا ويفتتن أهاليكم، فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم به، وإن ملت فلا بيعة لي عليكم، وإن أردتم أحداً هو أقوى عليها مني فأردتم بيعته فأنا أول من بايع ودخل في طاعته، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي

(٣٧) تاريخ خليفة بن خياط جـ٢ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣، ابن الأثير جـ٥ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢، الذهبي سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ٣٧٥.

ولكم[٣٨]:

والباحث يقف أمام هذه الافتتاحية وقفة فيها شيء من التأمل، وذلك لأننا في حالة التسليم بصدق يزيد بن الوليد، نجد أن هذه الافتتاحية تؤكد أن الانحرافات التي ظهرت من سلفه الوليد بن يزيد كانت موضع رفض واستنكار من عدد كبير من أبناء الأسرة الأموية، وقد تجسد هذا الموقف في شكل ثورة عاتية أسقطت الخليفة يزيد وما كان يمثله من انحراف وبعد عن الدين الإسلامي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الافتتاحية في قسمها الأخير تبرز الرغبة الصادقة لدى يزيد في أن يبدأ صفحة جديدة في تاريخ الدولة الأموية، صفحة أساسها العودة إلى قيم الإسلام ومثله في الحكم والسياسة، صفحة تعيد إلى الأذهان المحاولة الناجحة التي ارتبطت بالخليفة عمر بن عبد العزيز.

هذه هي افتتاحية يزيد في مراميها وأهدافها، ولكن الواقع التاريخي يقول بأن المنية لم تمهله حتى يضع افتتاحيته موضع التنفيذ، فقد توفي في ذي الحجة من سنة ست وعشرين ومائة، بعد خلافة قصيرة، عمرت فقط ستة أشهر.

° ° °

وبعد: فهذه هي افتتاحيات ووصايا القسم الأكبر، أو الأهم، من الخلفاء الأمويين، وهذه الافتتاحيات والوصايا بالغة الأهمية من الناحية التاريخية، وذلك لأنها تساعدنا مساعدة كبيرة في التعرف على شخصيات الرجال الذين قالوها، كما أنها تقدم لنا أحد الأسس في الحكم عليهم وعلى منجزاتهم.

وإضافة إلى ذلك فإن هذه الافتتاحيات والوصايا تكاد تقدم سجلاً وثائقياً لبعض مراحل تاريخ الدولة الأموية.

(٣٨) وردت هذه الافتتاحية أيضاً لدى الجاحظ (البيان والتبيين جـ٢ ص ١٤١) وابن عبد ربه (العقد الفريد جـ٤ ص ٩٦)، وابن قتيبة (عيون الأخبار جـ٢ ص ٢٤٨).

• أهم مصادر البحث •

١ ـ **ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد بن هبة الله.**
شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥م.

٢ ـ **ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم.**
الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٣ ـ **ابن اعثم، أبو محمد أحمد الكوفي.**
كتاب الفتوح، حيدر آباد ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

٤ ـ **ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد.**
أ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز، القاهرة، مطبعة المؤيد ١٣٣١هـ ـ ١٩١٢م.
ب ـ مناقب عمر بن الخطاب، القاهرة مطبعة محمد علي صبيح.

٥ ـ **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.**
كتاب العبر، دار الكتاب، بيروت ١٩٥٧م.

٦ ـ **ابن خلكان، أحمد بن محمد بن ابراهيم.**
وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت.

٧ ـ **ابن سعد، محمد**
الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ١٩٥٨.

٨ ـ **ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي.**
العقد الفريد، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٤.

٩ ـ **ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري.**
أ ـ الإمامة والسياسة القاهرة مطبعة النيل ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م.
ب ـ عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م.
جـ ـ المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف القاهرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

١٠ ـ **ابن كثير، اسماعيل بن عمر.**
البداية والنهاية، بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

١١ ـ **الجاحظ، أبو عمر وعثمان بن بحر**
البيان والتبيين، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٣٥م.

١٢ ـ **خليفة بن خياط**
تاريخ خليفة بن خياط، العراق، مطبعة الآداب ـ النجف ـ الأشرف ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م.

١٣ ـ **الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد**
سير أعلام النبلاء مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٤ ـ **الزبير بن بكار**
الأخبار الموفقيات، بغداد، إحياء التراث الإسلامي ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

١٥ ـ **السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر**
تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢.

١٦ ـ **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.**
١٣ تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار الفكر، بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٧ ـ **القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي**
صبح الأعشى، الطبعة الأميرية، القاهرة.

١٨ ـ **محمد بن حبيب**
المحبر، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر.

١٩ ـ **المسعودي، علي بن الحسين بن علي**
مروج الذهب، بيروت دار الأندلس ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٢٠ ـ **اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.**
تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.

• إذا كانت دعوة المسلمين تسيء إلى بعضهم فلن يتخاذل المسلمون ولن يتراجعوا في سبيل نصرة دينهم وتوحيد كلمتهم.
«فيصل بن عبد العزيز»